
اجاثا كريستي
الرجل الرابع



أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

-الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

- بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

- كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. وورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

الرجل الرابع

The Big Four

إذا انفرد كل واحد من الأربعة الكبار الذين ضمَّتهم هذه الرواية واستقل في تخطيطه فسيكون الأمر صعبًا للغاية.

أما إذا اجتمع الأربعة معًا فلا تفل عزيمتهم أمام أية صعوبة . الأربعة الكبار هم : رجل صيني الجنسية ألمعي، ومليونير، وعالمة فرنسية، وأستاذ ماهر في التنكر وتدبير طرق الهروب. الأربعة يتآمرون على تنظيم جريمة قتل تنظيمًا محكمًا خبيثًا حتى إن «هركيول بوارو» نفسه تستعصي عليه سلسلة جرائم القتل التي يحاول تتبعها حتى يصل إلى حل فيها ، ويبدو أن هذه القضية المركبة ستكون النهاية الأخيرة للقضايا التي ينشغل بها...

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	150 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الأردن	3 دنانير	مصر	10 جنيهات
الجزائر	300 دينار	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	3 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	العراق	4000 دينار

ISBN 995338391-X



الرجل الرابع

بونارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرَّبة

الرجل الرابع

(39)

تاليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب **374** جونيه – لبنان

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي – دار البشير

تأليف
Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب
The Big Four
(1927)

الغلاف بريشة الفنان العالمي

عبد العال

الرجل الرابع

أهم الشخصيات :

- "**هركيول بوارو**" : رجل مخابرات سرية.
- "**هاستنجز**" : صديق "**بوارو**" .
- "**أيب رايلاند**" : رجل أمريكي ثري.
- "**جاب**" : مفتش شرطة بإدارة "**سكوتلانديارد**" .
- "**جون أنجلز**" : موظف مدني متقاعد.
- "**مايرلنج**" : شرطي يعمل بقلم المخابرات.
- "**ميدوز**" : مفتش بالشرطة.
- "**كنت**" : نقيب في قلم المخابرات السرِّيّة.
- "**هاليداي**" : عالم بريطاني.
- "**أوليفييه**" : عالمة في الكيمياء من "**فرنسا**" .
- "**إينيز فيرونو**" : سكرتيرة "أوليفييه" .
- "**باينتر**" : رجل ثري مثقف.
- "**كلود داريل**" : ممثل في صالات الموسيقى والمسرح.

- 1 -

يجد كثير من الناس في عبور "**المانش**" لذة ولهوا، فيجلسون على ظهر السفينة وادعين حتى تلقي مراسيها، ثم يجمعون أمتعتهم ويهبطون منها في غير ما ضجة ولا جلبة. أما أنا فلا قبل لي بهذا ولا أكاد أعتلي سطح السفينة حتى أشعر بأن الوقت أقصر من أن يتسع للاستقرار على حال، ولا أنفك عن نقل حقائبي من مكان إلى آخر... وإذا نزلت إلى قاعة الطعام أخذت في التهام غدائي التهاما مخافة أن ترسو الباخرة قبل أن أصعد إلى ظهرها. ولعل هذا أثر من الآثار التي خلفها في نفسي قصر الإجازات إبان الحرب، فقد كان المرء يحرص على أن يكون في مقدمة النازلين ضنًّا بالدقائق الثمينة التي تضيع سدى.

ولقد وقفت بجانب سور السفينة في صباح ذلك اليوم من أيام تموز (يوليو) أرمق قلاع "**دوفر**" البيضاء وهي تدنو منا شيئا فشيئا، وأنا أعجب في نفسي لأولئك المسافرين الذين يستطيعون أن يقروا في مقاعدهم ساكنين دون أن يهز مشاعرهم أول ما يطالعهم من معالم وطنهم.

لكن لعل شانهم مختلف عن شاني، ولعل أكثرهم كانوا يقضون عطلة الأسبوع في "**باريس**" فلم تطل غيبتهم عن بلادهم... أما أنا فقد قضيت سنة ونصفا في مزرعة بـ"**الأرجنتين**"... ولئن كنت قد أصبت هناك الغنى والثراء، ونعمت مع زوجتي بحياة "**أمريكا الجنوبية**" الحرة الطليقة من القيود، فإني لم أملك نفسي من الإجهاش بالبكاء عندما وقع بصري على أرض الوطن، وكنت قد نزلت بـ"**فرنسا**" قبل ذلك بيومين حيث أنجزت بعض المهام، وهانذا في طريقي إلى "**لندن**"... وسوف أقضي بها بضعة أشهر أتمكن في خلالها من رؤية بعض قدماء الأصدقاء، ولاسيما صديق منهم قصير القامة أبيض الرأس أخضر العينين... هو "**هركيول بوارو**"!

ولقد أردت أن أفاجئه بمقدمي فلم أشر في آخر رسالة بعثت بها إليه من "**الأرجنتين**" إلى هذه الزيارة التي اضطرتني إليها بعض الشؤون العاجلة، ورحت أصور لنفسي دهشته وسروره عندما يراني. وكنت أستبعد أن يكون غائبا عن

مقره، فقد انقضى عهد تلك المهام التي كانت تحمله من أقصى "**إنجلترا**" إلى أقصاها، إذ بلغ من ذيوع الشهرة ونباهة الذكر ما كان يبغيه، ولم يعد يقبل أن تستغرق قضية من القضايا كل وقته... بل إنه ليعني الآن بأن يغدو بوليسا استشاريًا على نحو كبار أطباء شارع "**هارلي**".

وعندما بلغت "**لندن**" أودعت أمتعتي بأحد الفنادق ثم قصدت من فوري إلى مسكن صديقي وقد ازدحمت في خاطري الذكريات التي تثير الشجون. ودخلت المسكن فرأيت أمامي "**بوارو**" وبين ذراعيه حقيبة صغيرة لم تلبث أن هوت إلى الأرض عندما رآني وصاح:

– صديقي "**هاستنجز**"! صديقي "**هاستنجز**"! ثم اندفع نحوي كالسهم المارق وطوقني بذراعيه معانقا، وقلت أخيرا عندما انجلت غمرة الابتهاج:

– أظن أن جناحي القديم به ساكن آخر. كم أود أن أعود إلى الإقامة معك. فتغير وجه "**بوارو**" فجاة وصاح قائلا:

– يا إلهي! يا لها من فرصة تضيع! انظر حولك يا صديقي. ونظرت حولي لأول مرة فرأيت بجانب الجدار صندوقا ضخما من آثار ما قبل التاريخ، ومن كثب منه عدة حقائب للثياب مصفوفة تبعا لأحجامها الأكبر فالأصغر... وما كانت دلالة هذا لتخفى عليَّ فقلت:

– إنك تعتزم السفر؟

– نعم.

– إلى أين؟

– "**أمريكا الجنوبية**".

– ماذا؟

– أجل. إن أمري وأمرك ليبعثان على الضحك حقًا. فقد أمسكت عن مكاشفتك بذلك في رسائلي، ورحت أمني نفسي بمشاهدة ما يعتريك من العجب والذهول عندما تفاجأ برؤيتي!

- طالما ظننت أنه لا يمكن أن يغريك شيء قط برحلة طويلة في البحر؟ وانتفض "**بوارو**" قائلا:

- لا تتحدث عنها بربك يا صديقي. لكن الطبيب أكد لي أن ركوب البحر لن يميتني، ثم إن هذه الرحلة ستكون الأولى والأخيرة. ودفع بي إلى أحد المقاعد ثم أردف قائلا:

- سأخبرك كيف حدث ذلك. أتعرف من هو أغنى رجل في العالم؟ الرجل الذي تفوق ثروته ثروة "**روكفلر**" نفسه؟ إنه "**أيب رايلاند**"...

- ملك الصابون الأمريكي؟

- أجل هو. لقد اتصل بي أحد سكرتيريه وفاوضني في السفر إلى "**أمريكا الجنوبية**" لإجلاء أحداث غامضة مريبة تقع بمصنع في مدينة "**ريو**"، ورفضت السفر في أول الأمر، ولكني لم ألبث أن استجبت للمرة الأولى في حياتي لإغراء المال، وقد كان المبلغ الذي عرضه عليٍّ ثروة طائلة، بيد أنه كان ثمة عامل ثان من عوامل الإغراء... هو أنت يا صديقي... فلقد عانيت بعد رحيلك من مضاعفة العزلة والوحدة ما زهدني في حل المعضلات السخيفة، ورغبني في قبول ذلك المبلغ والإقامة في "**أمريكا الجنوبية**" بالقرب منك. وهكذا قبلت المهمة، وسأرحل بعد ساعة لأستقل القطار الذي يدرك السفينة. أليس هذا من مهازل الحياة؟ اخبرني... ما المعنى الشائع لعبارة "الأربعة العظام"؟

- أعتقد أن هذه العبارة نشأت في أثناء مؤتمر "**فرسايل**"، كما أن هناك "الأربعة العظام" البارزين في عالم السينما، ويطلق هذا اللقب الآن على هيئات كثيرة قليلة الخطر.

- لقد عثرت على هذا اللقب في ظروف لا تلائم شيئا من الإيضاحات التي ذكرتها، ويلوح لي أنه يشير إلى عصبة من المجرمين الدوليين أو ما يشبه ذلك، غير أنه... وسألته عندما رأيت تردده في إتمام كلامه:

- غير أنه ماذا؟

- غير أنه يبدو لي كذلك أن هذه العصبة تهدف إلى أغراض بعيدة المدى واسعة

النطاق. ولكنه مجرد ظن لا أكثر ولا أقل. والآن يجب أن أفرغ من حزم أمتعتي فإن الوقت يمضي سريعا. فقلت ملحًّا:

– لا تذهب... ألغ تذكرتك وسافر معي بالسفينة التي سأرحل بها. فنصب "بوارو" قامته ورشقني بنظرة لوم وتأنيب وهو يقول:

– لقد وعدت، وما كان "هركيول بوارو" ليخلف وعده إلا لأمر فيه موت أو حياة. وفتح الباب على مهل، وبدا من خلفه رجل يعلوه التراب والأوحال من قمة الرأس حتى أخمصي القدمين، وهو نحيف الوجه شاحبه، وحدق إلينا لحظة، ثم ترنح وهوى إلى الأرض فبادر إليه "بوارو"، ثم نظر إليَّ قائلا:

– شرابًا... أسرع. فأفرغت قليلا من الشراب في قدح وجئت به... وبعد أن سقاه "بوارو" قليلا منه حملناه فيما بيننا إلى الأريكة... ولم يلبث الرجل أن فتح عينيه وأخذ يجيل فيما حوله بصرا شاردا... فسأله "بوارو":

– ما الذي تريد يا صديقي؟ وفتح الرجل شفتيه وقال في صوت غريب:

– سيد "هركيول بوارو" بشارع "فاراواي" رقم 14.

– أجل... أجل... أنا هو. وحاول "بوارو" أن يقف على حقيقة أمره بإلقاء طائفة من الأسئلة عليه، فكان الرجل يصمت حينا، ويكرر عبارته تلك حينا آخر، فأشار إليَّ "بوارو" باستدعاء الدكتور "ريدجواي" تليفونيًّا وكان الطبيب في بيته لحسن الحظ، كما كان بيته قريبا جدًّا فأقبل بعد دقائق قلائل. وقال الطبيب أخيرا:

– إنها لحالة عجيبة. إن الرجل مصاب بصدمة ما. وكان مقبلا إلى هنا تحت سلطان فكرة ملحة هي مقابلة السيد "هركيول بوارو" بشارع "فاراواي" رقم 14 فهو لا يفتأ يكرر هذه الكلمات آليًّا دون أن يفقه معنى ما يقول. ثم وضع الطبيب بيد الرجل ورقة وقلما وهو يقول:

– فلننظر ما يفعل الآن. بيد أن الرجل لم يفعل شيئا في أول الأمر، ولكنه بدأ يكتب بعد قليل في مثل رعدة المحموم. ثم توقف عن الكتابة فجأة كما بدأ، وهوى القلم والورقة إلى الأرض. فتناول الطبيب الورقة ونظر فيها ثم هز رأسه قائلا:

– ليس فيها شيء ذو معنى لم يكتب سوى رقم 4 اثنتي عشرة مرة، وهو في كل

مرة أكبر من سابقه. وإنه ليريد أن يكتب رقم 14 بشارع "**فاراواي**". هذه حالة عجيبة... عجيبة جداً هل تستطيعان إبقاءه هنا إلى ما بعد الظهر؟ إنني ذاهب الآن إلى المستشفى، ولكنني ساعود بعد الظهر وأتدبر في أمره. إنها حالة عجيبة لا يمكن إهمالها. فأفضيت إليه بأن "**بوارو**" سيرحل الآن وأنني ساصحبه إلى "**سوثهامبتن**" فقال:

– لا بأس. اتركاه هنا وليس في ذلك ضير. إنه يعاني ضعفا في قواه، وسيستغرق على الأرجح في نوم عميق لثماني ساعات كاملة. وساطلب من مدبرة المنزل أن تلاحظه. وهرول الطبيب إلى الخارج بسرعته المعهودة. وأتم "**بوارو**" حزم أمتعته وبصره لا يتحول عن الساعة... ثم قال:

– إن الوقت يمضي بسرعة عجيبة... وليس بوسعك الآن يا "**هاستنجز**" أن تزعم أنني تركتك بلا عمل يشغلك ويدفع عنك السأم والملل، فهأنتذا أمام لغز يثير العجب، الرجل الهابط من المجهول. من هو؟ وما غايته؟ إني لأنزل عن سنتين من عمري لو كان بوسعي أن أؤخر قيام الباخرة إلى الغد. إن هنا لأمرا عجيباً حرياً بالاهتمام، لكن علاجه يتطلب فسحة من الوقت. فقد يمضي اليوم بل الشهور قبل أن يتمكن هذا الرجل من الكلام والإفضاء إلينا بما جاء من أجله. وانتفضت عجبا إذ رأيت الرجل يثوب إلى رشده فجأة ويستوي في مقعده جالسا وهو يقول بنبرات واضحة جلية:

– "**لي تشانج ين**". وكان منظره كمنظر من يستيقظ فجأة من النوم، فأشار "**بوارو**" إليّ بالصمت. ومضى الرجل في كلامه بصوت مسموع واضح النبرات، وإن كان في إلقائه ما يوحي إلى المرء بأنه مجرد ناقل عن تقرير أو خطبة مكتوبة:

– إن "**لي تشانج ين**" من "الأربعة العظام" بمثابة العقل المفكر والرأس المدبِّر، فهو القوة الموجهة الدافعة، ولذلك أطلقت عليه رقم 1... أما رقم 2 فيندُر أن يذكر اسمه بل يرمز إليه بحرف "س" بالإنجليزية يقطعه خطان وذلك علامة الدولار، أو بخطين ونجمة. ويمكن أن يستنتج من ذلك أنه أمريكي الجنسية وأنه يمثل قوة المال. ولا يكاد يخالجني أي شك في أن رقم 3 امرأة فرنسية، ولا يبعد أن تكون من

شهيرات غواني "**باريس**"، ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك بصفة قاطعة أما رقم 4... وهنا خفت صوت الرجل واضطرب ثم انقطع. وانحنى عليه "**بوارو**" وهو يستحثه على الكلام. وغمغم الرجل بجهد ومشقة:

– المدمر... ثم انتفض في عنف وغاب عن الصواب. وهمس "**بوارو**":

– احمله إلى سريري. ليس أمامي دقيقة واحدة أضيعها وإلا فاتني القطار. وما أعني أنني راغب في أن أدركه، فما أشد ما أتمنى أن يفوتني القطار دون أن يلحق بي لوم أو ذم! ولكني وعدت فهيا بنا يا "**هاستنجز**"!

وتركنا زائرنا العجيب في عهدة مدبرة المنزل السيدة "**بيرسون**" وأدركنا القطار في آخر لحظة. وكان "**بوارو**" يلوذ بالصمت العميق حينا، ويسرف في الكلام حينا آخر. فهو يجلس شاخصا ببصره من نافذة القطار كالذاهل الحالم دون أن يسمع كلمة مما أقول، ثم ينشط للحديث فجأة ويمطرني بوابل من الوصايا والأوامر ويلح عليَّ بموافاته بكل ما يجد بالتلغراف اللاسلكي.

وكنا في نوبة من نوبات الصمت عندما اجتزنا بلدة "**ووكنج**" وعلى الرغم من أن القطار لم يكن ليقف قبل بلوغ "**سوثهامبتن**" فقد تلقى إشارة بالوقوف فجأة ريثما يُخلى له الخط. وعند ذلك صاح "**بوارو**" فجأة:

– آه! لقد كنت غبيًّا أحمق، وهأنذا أفطن إلى الحقيقة لا ريب في أن القطار وقف هنا بمعجزة. اقفز يا "**هاستنجز**"... اقفز. وبعد لحظة واحدة كان قد فتح باب المركبة ووثب إلى الأرض، وأمرني بأن أقذف بحقائبه ثم أثب إلى الأرض بعدها، ففعلت ذلك في آخر لحظة إذ تحرك القطار عندما وطئت قدماي الأرض وقلت بشيء من الضيق والتبرم:

– عسى أن تخبرني الآن يا "**بوارو**" بمعنى هذا كله. أجاب:

– معناه أنني أبصرت النور. قلت:

– إن في هذا ما يظهر لي كل خفي!

– هذا ما يجب أن يكون، لكن شد ما أخشى ألا تفهم منه شيئا، إذا استطعت أن تحمل حقيبتين كان بوسعي حمل بقية الأمتعة.

- 2 -

كان القطار قد وقف لحسن الحظ قريبا من إحدى المحطات، فلم نسر غير قليل حتى بلغنا جراج السيارات، وبعد نصف ساعة كانت السيارة تطوي الأرض عائدة بنا إلى "**لندن**". وعند ذلك أخذ "**بوارو**" يشبع فضولي فقال:

- ألا تستطيع أن تتبين الحقيقة؟ لقد خفيت عليّ كما تخفى عليك، ولكني أراها الآن واضحة. لقد كانوا يبعدونني عن الطريق. ولا ريب في أنهم كانوا يخشونني.

- من هم الذين كانوا يخشونك؟

- أولئك العباقرة الأربعة الذين تحالفوا للعبث بالقانون والخروج عليه. هم: صيني وأمريكي وفرنسية ورابع لا نعرفه... أسأل الله يا "**هاستنجز**" أن نبلغ "**لندن**" قبل فوات الأوان.

- أتظن أن هناك خطرا على ضيفنا؟

- أنا واثق بذلك. واستقبلتنا عند وصولنا السيدة "**بيرسون**" مبتهجة بعودة "**بوارو**"، ولكننا لم نمهلها حتى تعرب عما يعتمل في نفسها، بل سألناها عمّا لديها من الأنباء، فكان ما أفضت به إلينا باعثا على الاطمئنان، إذ لم يسأل عنا أحد ولم يأت ضيفنا بحركة. فتنفسنا الصعداء وصعدنا إلى شقتنا... واجتاز "**بوارو**" الغرفة الخارجية إلى المخدع ثم ناداني وقال بصوت ينم عن الاضطراب:

- لقد مات يا "**هاستنجز**"... ولحقت به مسرعا فألفيت الرجل كما تركناه تماما ولكنه ميت لا حراك به! وركضت إلى الخارج في طلب طبيب، وكنت أعلم أن الدكتور "**ريدجواي**" لا يمكن أن يكون قد عاد إلى بيته. وسرعان ما عدت بأحد الأطباء وقال الطبيب بعد أن فحصه:

- إن المسكين ميت. أهو متشرد كنتما تعطفان عليه؟ فأجاب "**بوارو**":

- شيء من هذا القبيل. لكن ما سبب الموت يا دكتور؟

- من العسير أن أقطع في ذلك برأي. فقد تكون نوبة من النوبات... وهناك أعراض اختناق. هل هنا أنابيب للغاز؟

– كلا . . . ليس هنا سوى الكهرباء .

– ثم إن النافذتين مفتوحتان وإني لأرى أنه مات منذ ساعتين تقريبا . لا ريب في أنك ستخطر الجهات المختصة؟ واستأذن في الانصراف . وراح "**بوارو**" يقوم بالاتصالات التليفونية اللازمة ومن العجيب أنه اتصل في النهاية بصديقنا القديم المفتش "**جاب**" وسأله المجيء إلينا . وما كاد صاحبي يفرغ من ذلك حتى أقبلت إلينا السيدة "**بيرسون**" وفي عينيها سمات العجب والدهشة وقالت :

– هنا رجل من مستشفى المجانين في "**هانويل**" . هل أحضره إلى هنا؟ وسرعان ما جاءتنا برجل ضخم الجسم مفتول الساعدين يرتدي ثيابا رسمية . . . قال بلهجة مرحة :

– طاب نهاركما أيها السيدان . إن لديَّ ما يحملني على الاعتقاد أن عندكما هنا طائرا من طيوري لقد هرب في الليلة الماضية . فأجابه "**بوارو**" بهدوء :

– لقد كان هنا . وسأل الحارس بشيء من الاهتمام :

– هل هرب ثانية؟

– بل قضى نحبه . فبدت على الرجل علامات الارتياح وقال :

– لعل هذا خير له ولغيره .

– أكان جنونه خطرا؟

– أتعني هل كان جنونا دمويًّا؟ كلا . . . لقد كان هادئا لا يؤذي . وإنما كانت تلح عليه الخيالات والأوهام ، ولا يفتأ يهذي بجمعيات سرية سجنته في "**الصين**" ، وما إلى ذلك من التخريف والتهريف . فسأله "**بوارو**" :

– وكم انقضى عليه في المستشفى؟

– إن له الآن نحو سنتين . لم يزد "**بوارو**" على ذلك شيئا ودخل بالرجل لكي يرى الجثة فعرفها في الحال . وقال الحارس دون أن يبدي شيئا من التأثر :

– هذا هو دون ريب . ومن الخير أن أنصرف الآن لاتخاذ الترتيبات التي تقتضيها هذه الظروف . ولن نزعجكم بهذه الجثة طويلا ، وستدعيان بطبيعة الحال لحضور أي تحقيق قد يجرى في هذا الشأن . . . طاب صباحك يا سيدي . وخرج الحارس متثاقلا

بعـد أن انحنى أمـام صـاحـبي. وبعـد دقـائق أقـبل "**جـاب**" المفـتش بإدارة "**سكوتلانديارد**" مرحا نشيطا كعادته وقال:

– هأنذا يا سيد "**بوارو**"... أية خدمة أستطيع أداءها؟ لقد ظننتك راحلا اليوم إلى مضايق المرجان أو غيرها من الأنحاء القاصية.

– أريد أن أعـرف يا عـزيزي "**جـاب**"، هل رأيت هذا الرجل من قبل؟ وأخـذ "**جاب**" إلى المخدع، فراح المفتش يحدق إلى الجثة المسجاة على السرير في حيرة وارتباك ثم قال:

– يخيل إليّ أنني أعرفه، وإن ذاكرتي لقوية... يا لله إنه "**مايرلنج**"؟

– ومن هو "**مايرلنج**"؟

– إنه من رجال قلم المخابرات، وقد ذهب إلى "**روسيا**" منذ خمس سنوات، ثم لم نسمع عنه بعد ذلك خبراً... وكنت أظن أن البلاشفة قضوا عليه. وبعد انصراف "**جاب**" قال "**بوارو**":

– إن كل ما وقفنا عليه الآن يلائم بعضه بعضا... ولا يشذ عن ذلك سوى أن يكون موت هذا المنكود طبيعيًّا. ووقف ينظر إلى الجثة المسجاة نظرات الشك والارتياب... وحركت هبة من الريح ستائر النوافذ فالتفت إليَّ وقال:

– أظنك فتحت النوافذ عندما وضعته على السرير يا "**هاستنجز**"؟ أجبت:

– كلا... بل أذكر أنها كانت مغلقة. فرفع "**بوارو**" رأسه فجأة وهو يقول:

– كانت مغلقة وهي الآن مفتوحة... فعلام يدل ذلك؟ قلت:

– لا شك في أن شخصا ما قد دخل إلى الغرفة عن طريقها. فأسرع إلى الغرفة الخارجية ثم عاد قائلا:

– إن نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضا مع أننا تركناها مغلقة. وانحنى على الميت يفحص جانبي فمه فحصا دقيقا ثم انتصب فجأة وقال:

– لقد كان الرجل مكمما يا "**هاستنجز**"... كمم ثم قتل بالسم!! فهتفت مرتاعا:

– يا لله أظن أننا سنعرف تفاصيل ذلك من التشريح.

– لن نعرف شيئا فقد قتل بتنشيقه حامض البروسيك القوي، وذلك بوضعه تحت أنفه... ثم انصرف القاتل بعد أن فتح جميع النوافذ... وهذا الحامض سريع الطيران، لكن له رائحة قوية كرائحة اللوز المر... فإذا لم يجد الأطباء أثرا للرائحة يهديهم إلى الحقيقة عزوا الموت إلى سبب من الأسباب الطبيعية... وقد علمنا أن هذا الرجل كان بقلم المخابرات، وأنه ذهب إلى "**روسيا**" منذ خمس سنوات.

– لقد لبث السنتين الأخيرتين في مستشفى المجانين، فماذا حدث في السنوات الثلاث السابقة لهما؟ فهز "**بوارو**" رأسه ثم قبض على ذراعي قائلا:

– الساعة. انظر إلى الساعة. وتتبعت بصره إلى الساعة الموضوعة على الموقد فرأيتها واقفة على الرابعة. وقال "**بوارو**":

– لقد عبث شخص ما بالساعة يا صديقي، فقد كان يجب أن تدور ثلاثة أيام أخرى إذ إنها لا تملأ إلا كل ثمانية أيام فماذا تفهم من ذلك؟

– لكن لماذا يعبثون بها؟ أيريدون تضليلنا وإيهامنا بان الجريمة وقعت في الساعة الرابعة؟

– كلا. كلا أعد تنسيق أفكارك يا صديقي واستعمل خلايا مخك... هب أنك في مكان "**مايرلنج**". لعلك تسمع حركة أو صوتا... وإنك لتعلم حق العلم أن موتك أمر محقق، وليس أمامك من الوقت إلا ما يسمح لك بأن تترك إشارة أو رمزا... الساعة الرابعة يا "**هاستنجز**" رقم 4 المدمر يا لها من فكرة! وهرع إلى الغرفة الأخرى راكضا حيث رفع سماعة التليفون وطلب مستشفى المجانين في "**هانويل**".

– مستشفى المجانين؟ لقد فهمت أن أحد المرضى هرب اليوم! ماذا تقول؟

– لحظة واحدة من فضلك. هل تسمح بإعادة هذا؟ آه. شكرًا. ووضع السماعة مكانها وعاد إليّ قائلا:

– هل سمعت يا "**هاستنجز**"؟ لم يهرب أحد. قلت:

– لكن الرجل الذي جاء هنا... الحارس؟

– إني لفي شك.

– أتعني...؟

– رقم 4 المدمر. فوقفت لحظة مشدوها معقود اللسان ثم قلت عندما أسعفني النطق:

– سوف نعرفه على كل حال إذا رأيناه ثانية، وهذه نقطة في صالحنا، فإنه ذو شخصية واضحة.

– أهو كذلك يا صديقي؟ لا أظن. لقد كان مفتول الساعدين ممتلئ الجسم محمر الوجه له شارب كثيف وصوت خشن أجش. ولن نرى فيه شيئا من هذه الصفات فيما بعد... أما فيما عدا ذلك، فعيناه وأذناه ليس بها ما يميزها عن غيرها وأسنانه باكملها صناعية. إن التعرف إلى شخصيته ليس بالأمر اليسير كما تظن وفي المرة التالية... فقاطعته قائلا:

– أتظن أنه سيكون هناك مرة تالية؟ وبدت على محيا "**بوارو**" سمات الجد والاهتمام وقال:

– إنه صراع حتى الموت يا صديقي. أنا وأنت في جانب و"الأربعة العظام" في الجانب الآخر. ولقد ربحوا اللعبة الأولى، ولكنهم أخفقوا في إبعادي عن طريقهم، وسيكون عليهم في المستقبل أن يحسبوا حساب "**هركيول بوارو**".

– 3 –

ظللت يوما أو يومين أطمع في عودة حارس مستشفى المجانين الزائف وأبيت أن أفارق المسكن لحظة واحدة... فقد كنت أرى أنه ليس ثمة ما يحمله على الظن بأننا كشفنا تنكره، وأنه قد يعود لنقل الجثة. لكن "**بوارو**" سخف من فكرتي قائلا:

– لك يا صديقي أن تتربص ما شئت في طلب المحال، أما أنا فلن أضيع وقتي فيما لا يجدي.

– لماذا جازف إذن بالمجيء إلى هنا يا "**بوارو**"؟ لو كان يعتزم العودة لأخذ الجثة لرأيت في زيارته سببا معقولا إذ يزيل بذلك الدليل على جريمته. أما الاكتفاء

بزيارته الأولى فليس له أي معنى؛ إذ إنه لم يفد منها شيئا...

– إنك لا تنظر إلى الأشياء بعين رقم 4 يا "**هاستنجز**"... أنت تتحدث عن الدليل لكن أي دليل نملك ضده؟ نعم إن بين أيدينا جثة، لكن ليس ثمة أقل دليل على أن الرجل مات مقتولا؛ فإن حامض البروسيك إذا استنشق لا يترك أثرا. وفوق ذلك فإننا لا نستطيع أن نجد من رأى أحداً من الناس يدخل شقتنا إبان غيابنا، كما أننا لم نجد شيئا عن حركات صديقنا المرحوم "**مايرلنج**"...

كلا يا "**هاستنجز**". إن رقم 4 لم يخلف وراءه أثرا وهو عليم بذلك. وما أراد بزيارته لنا غير التعرف والاستطلاع. كان يريد أن يرى "**بوارو**" ويحادثه وهو الخصم الوحيد الذي يجب أن يرهبه ويخشاه... وبدا لي تعليق صديقي مشوبا بما عرف عنه من حب المباهاة والافتخار، ولكنني أمسكت عن مناقشته وقلت:

– وما رأيك في تحقيق أسباب الوفاة؟ لا ريب في أنك ستوضح الأمر لهيئة التحقيق إيضاحًا تامًّا وتدلي إلى رجال البوليس بأوصاف رقم 4.

– وما الفائدة من ذلك؟ هل بوسعنا أن نقدم ما يقنع المحلفين وهم من مواطنيك الإنجليز ذوي العقول الجامدة؟ هل ينطوي وصفنا لرقم 4 على أية قيمة؟ كلا... سنتركهم يقررون أنه "موت عارض" ولعل القاتل البارع – وإن كان أملي في ذلك ضعيفا – يهنئ نفسه بأنه استطاع أن يخدع "**هركيول بوارو**" في الجولة الأولى.

وكان "**بوارو**" صادق النظر كعادته، فإن الحارس الزائف لم يظهر قط، وانقضى التحقيق في موت الرجل دون أن يحدث شيئا من الاهتمام.

سألني في صباح أحد الأيام بعد أسبوع من حادث القتل هل أحب أن أرافقه في زيارة يريد القيام بها. وسررت بذلك أشد السرور إذ كنت أرى أنه يخطئ بمحاولة الاستئثار بمعالجة هذه المشكلة وحل طلاسمها، لكنني ألفيته راغبا عن التحدث فيها، حتى أنه لم يشأ أن يصارحني بالمكان الذي سنذهب إليه.

و"**بوارو**" مولع بأن يحيط نفسه بجو من الغموض والخفاء ولا يبوح قط بخبر من الأخبار إلا في آخر لحظة ممكنة. وقد ركبنا حافلتين وقطارين على التوالي وهو صامت لا ينطق، فلما بلغنا ضاحية من ضواحي "**لندن**" الجنوبية الموحشة القابضة

للنفس ارتضى أن يشرح لي أخيرا الباعث على هذه الزيارة فقال:

– إننا ذاهبان يا "**هاستنجز**" لمقابلة الرجل الوحيد في "**إنجلترا**" الذي يعرف معظم العصابات في "**الصين**"... رجل لم تسمع به قط... رجل يدعى السيد "**جون أنجلز**" وهو موظف مدني متقاعد متوسط الذكاء يملأ بيته بالتحف الصينية. لكن الخبيرين قد أكدوا لي مع ذلك أن "**جون أنجلز**" هذا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يمدني بما أريد من المعلومات.

وبعد بضع دقائق كنا نطرق باب السيد "**جون أنجلز**" ففتح لنا خادم صيني جامد الأسارير وقادنا إلى حضرة سيده. وكان "**أنجلز**" ربع القامة مصفر البشرة، ذا عينين عميقتين. ونهض لتحيتنا وهو يضع جانبا رسالة كانت في يده. وقد أشار إلى هذه الرسالة بعد أن فرغ من التحية فقال:

– تفضلا بالجلوس. إن "**هالسي**" أخبرني بأنك تحتاج إلى بعض المعلومات وأنني قد أكون ذا فائدة لك في هذا الصدد.

– أجل يا سيدي. إني أريد أن أسألك هل تعرف شيئا عن رجل يسمى "**لي تشانج ين**"؟

– هذا عجيب. وكيف سمعت بهذا الرجل؟

– إنك تعرفه إذن؟

– لقد لقيته مرة، وأعرف عنه بعض الأمور وإن كانت أقل مما كنت أود معرفته، لكن يدهشني حقًّا أن يكون في "**إنجلترا**" من سمع باسمه سواي. وهو رجل عظيم في محيطه من الموظفين الصينيين ومن إليهم، لكن ليس هو جوهر الموضوع، فإن هناك من الأسباب ما يبرر الاعتقاد أنه الرجل الخفي الكامن وراء هذا كله.

– وراء ماذا؟

– وراء كل شيء: هذا الاضطراب العالمي الشامل، وقلاقل العمال التي تقض مضاجع كل شعب، والثورات التي تنشب في كثير من الأقطار. وهناك قوم ليسوا من دعاة الخوف والقلق، وهم يقولون إن ثمة قوة محركة من وراء هذه المناظر التي ترمي إلى القضاء على المدنية، ففي "روسيا" كما تعلم كان يوجد كثير من القرائن

التي تدل على أن "**لينين**" و"**تروتسكي**" لم يكونا سوى دميتين تتحركان طوعا لعقل رجل آخر. وليس لديَّ من البراهين ما يكفي لإقناعك، ولكني أعتقد أن ذلك العقل المفكر هو "**لي تشانج ين**" . قلت معترضا:

– ألا ترى في هذا إسرافا وشططا؟ كيف يمكن أن يؤثر رجل صيني في "**روسيا**"؟ فقال "**بوارو**" عابسا متبرما:

– إنك يا "**هاستنجز**" لترى في كل ما لا يصدر عن خيالك إسرافا وشططا، ولكني أتفق مع هذا السيد في رأيه. امض في حديثك يا سيدي. واستطرد السيد "**أنجلز**" يقول:

– وليس بوسعي أن أتبين الهدف الذي يرمي إليه من كل هذا، ولكني أظنه مصابا بنفس الداء الذي ما فتئت العقول الكبيرة تدهى به منذ عهد "**أكبر**" و"**الإسكندر**" حتى "**نابليون**"... ألا وهو شهوة السلطان والعظمة الشخصية! وقد كانت الجيوش المسلحة حتى العصور الحديثة عدة الغزو والفتح، لكن رجلا مثل "**لي تشانج ين**" يستطيع أن يبلغ غرضه بوسائل أخرى في هذا القرن المتسمم بالفتن والثورات... وعندي من الأدلة ما يؤيد أن تحت تصرفه موارد لا تنضب من المال للرشوة والدعاية، وثمة دلائل تنم عن أنه يسيطر على قوة علمية أعظم خطرا مما خطر ببال إنسان. وكان "**بوارو**" يتتبع كلمات "**أنجلز**" بمزيد من العناية والاهتمام. وسأله:

– و"**الصين**" هل يعمل هناك أيضا؟ فأومأ "**أنجلز**" بالإيجاب وقال:

– لا أستطيع هنا إبراز دليل يأخذ به القضاء، ولكني أستمد حديثي من معلوماتي الشخصية. إني لأعرف كل رجل له قيمة اليوم في "**الصين**" . وبوسعي أن أقول إن الرجال البارزين أمام الرأي العام هم أضعف الناس شخصية، أو لا شخصية لهم إطلاقًا... إنهم مجرد عرائس ترقص بأسلاك تجذبها يد أخرى، هي يد "**لي تشانج ين**" وهو العقل الذي يسيطر على الشرق في الوقت الحاضر... إننا لا نفهم الشرق ولن يتهيأ لنا فهمه، لكن "**لي تشانج ين**" هو الروح الذي يحركه ولا أعني بذلك أنه يبرز إلى المسرح ويخطر تحت أضوائه. كلا... إنه لا يبرح قط قصره في

"**بكين**"، ولكنه يجذب الخيوط فتقع الأحداث في أقصى الأنحاء. فسأله "**بوارو**" :

– أليس ثمة من يعارضه ويقاومه؟ ومال السيد "**أنجلز**" في مقعده قائلا في تمهل:

– لقد حاول ذلك أربعة رجال في خلال الأعوام الأربعة الأخيرة... رجال من ذوي الخلق القويم والنزاهة والشرف والذكاء.

– حسنا؟

– حسنا... إنهم ماتوا جميعا... فقد كتب أحدهم مقالا قرن فيه اسم "**لي تشانغ ين**" بالاضطرابات التي وقعت في "**بكين**" فأصيب بعد يومين بطعنة نجلاء قضت عليه وهو يسير في الطريق ولم يقبض على قاتله قط! وكانت جريمة الرجلين التاليين له مشابهة لجريمته، إذ قرنا في مقال أو حديث اسم "**لي تشانغ ين**" بالقلاقل والفتن، فلم ينقض أسبوع على زلة كل منهما حتى كانا في الهالكين. وقد مات أحدهما بالسم، والآخر بالكوليرا دون أن يكون ثمة هذا الوباء! أما الرابع فقد وجد ميتا في فراشه ولم يمكن تعليل سبب موته. وقد أخبرني طبيب شاهد الجثة بأنها كانت محترقة ضامرة أشد الضمور كأنما سلط عليها تيار كهربائي تفوق قوته كل ما يصل إليه الخيال! قال "**بوارو**" :

– و"**لي تشانغ ين**"؟ لا ريب في أنه لا يمكن العثور على أية صلة بينه وبين هذه الحوادث لكن ثمة قرائن وعلامات؟

– أجل... مجرد علامات... ولقد عثرت ذات يوم على شخص يرغب في الكلام وهو كيماوي صيني شاب عظيم الذكاء ممن يشملهم "**لي تشانغ ين**" برعايته، جاءني هذا الكيماوي الشاب ذات يوم وهو في أشد حالات الاضطراب، ولمح إلى تجارب كان يقوم بها في قصر "**لي تشانغ ين**" وتحت إشرافه وتوجيهه... تجارب كانت تُجرى على الأُجراء الصينيين التعساء ولا يقام فيها أي وزن للحياة الإنسانية أو لما يعانيه أولئك المنكودون من الألم المروع، وكان الشاب محطم الأعصاب فحملته على النوم بالغرفة العليا من البيت الذي كنت أقيم به، معتزما أن أسأله في اليوم التالي عما يروعه، ولكنني ارتكبت بذلك أكبر عمل من أعمال

الغفلة والغباء. وسأله "**بوارو**" :

– وكيف استطاعوا الوصول إليه؟

– هذا هو الأمر الذي لن أعرفه أبداً. فقد استيقظت في تلك الليلة وقد اشتعلت النيران في بيتي، وأسعدني الحظ بالنجاة بجلدي. ودل البحث على أن حريقا هائلا شب في الطابق الأعلى من البيت، ووجدت رفات صديقي الصيني وقد أحالها الحريق ترابا! وهنا فطن محدثنا إلى أن ذكر "**الصين**" قد استثار حماسته واستدرجه إلى الإسهاب الذي طالما شكاه جلساؤه فاستدرك ضاحكا:

– ولكني لا أملك بالتأكيد دليلا على ما أقول، وستقولان كغيركما إن بي لوثة أو خبالا. فأجاب "**بوارو**" بهدوء:

– بل إن لدينا كل ما يحملنا على الاعتقاد بصدق قصتك، ونحن مهتمان اهتماما ليس بالقليل بأمر "**لي تشانغ ين**" .

– إني لأحب أن أعرف كيف سمعتما به... إذا لم يكن ثمة مانع من ذلك.

– لقد لاذ بمسكني رجل كان يعاني آثار صدمة عنيفة مروعة، ولكنه استطاع مع ذلك أن يفضي إلينا بما أثار اهتمامنا بأمر "**لي تشانغ ين**"... وصف الرجل أربعة أشخاص... "الأربعة العظام"... وهم هيئة لم يكن ليحلم بوجودها أحد... فرقم 1 هو "**لي تشانغ ين**"، ورقم 2 أمريكي مجهول، ورقم 3 امرأة فرنسية مجهولة كذلك، ورقم 4 يمكن أن يسمى منفذ العصابة... أو المدمر، وقد مات هذا الرجل الذي أفضى إليَّ بهذه المعلومات، فهل تعرف شيئا يا سيدي عن "الأربعة العظام"؟

– لا أعرف صلة بين هذه الهيئة وبين "**لي تشانغ ين**"، ولكني سمعت بها أو قرأت عنها في العهد الأخير... وفي مناسبة غريبة، آه... لقد تذكرت. وقام إلى دولاب صغير الحجم بديع الصنع وعاد برسالة في يده وهو يقول:

– هذه رسالة من بحار قديم لقيته مصادفة في "**شنغهاي**"، وقد حسبت ما جاء بها من هذر السكارى. وراح يتلوها بصوت مرتفع:

« سيدي العزيز... قد لا تذكرني، ولكنك أسديت إليَّ يدا في "**شنغهاي**"، وأرجو أن تسدي إليَّ الآن يدا أخرى... إني أحتاج بشدة إلى النقود كي أغادر

هذه البلاد، ومع أني أرجو أن أكون هنا في مخبإ أمين، فإنهم قد يظفرون بي في أي يوم... وأعني بهم "الأربعة العظام"! إنها الحياة أو الموت، وعندي وفر من المال، ولكني لا أجرؤ على الدنو من مكانه لئلا ينتبهوا إليّ... أرسل إليّ مائتي جنيه من أوراق النقد، وأقسم أن أردها كاملة».

"يوناثان هوالي"

وأردف "**أنجلز**" يقول:

– والرسالة محررة بشاليه "**الجرانيت**" في "**هوباتون**" بـ"**دارتمور**" وكنت أظنها حيلة لسلب مائتي جنيه أنا في أشد الحاجة إليهما فإذا كنت تجد فيها فائدة... ومد الرسالة إلى "**بوارو**" فقال صاحبي:

– أشكرك، وسأقوم إلى "**هوباتون**" في الحال.

– إنها مسألة تثير الاهتمام فهل لديك مانع من مجيئي معكما؟

– يسرني أن تكون معنا، لكن يجب أن أذهب في الحال حتى نبلغ "**دارتمور**" قبيل الليل.

لم يستغرق استعداد "**أنجلز**" للخروج أكثر من دقيقتين. وبلغنا قرية "**هوباتون**" حوالي الساعة الثامنة، ولما كنا إذ ذاك في شهر تموز (يوليو) فإن ضوء النهار كان لا يزال منتشرا، وأخذنا نقطع شوارع القرية الضيقة حتى لقينا قرويًا ساذجا سألناه عن شاليه "**الجرانيت**" فأشار إلى كوخ صغير قائم في نهاية الشارع وهو يقول:

– هذا هو الشاليه، أتريدون مقابلة المفتش؟ فسأله "**بوارو**" منفعلا:

– أي مفتش؟ ماذا تعني؟

– ألم يبلغك حادث القتل إذن؟ لقد كان حادثا مروعا، ويقال إن هناك بركة من الدماء. فغمغم "**بوارو**":

– يا لله! يجب أن أرى مفتشك هذا في الحال.

وبعد خمس دقائق كنا في خلوة مع المفتش "**ميدوز**"، وقد أبدى الرجل شيئا من الخشونة والغلظة، لكن "**بوارو**" لم يكد يذكر اسم "**جاب**" المفتش بإدارة "**سكوتلانديارد**" حتى لانت عريكته واستحالت غلظته رقة ولينا. وقال يصف الحادث:

– أجل يا سيدي... قتل هذا الصباح، وكان مقتله فظيعا بشعا... وقد أخطروا نقطة بوليس "**مورتون**" تليفونيًّا فجئت في الحال... وبدا لي الحادث يلفه الغموض والخفاء، فإن القتيل –وهو كما تعلم يناهز الستين وكان مولعا بالشراب كما قيل لي– كان مستلقيا على أرض غرفة الجلوس وفي رأسه خدش، وقد حز عنقه حتى كاد الرأس ينفصل عن الجسد... وكانت الدماء متناثرة في الغرفة كلها، وقد أخبرتنا المرأة التي تطهو له طعامه وتدعى "**بتسي أندروز**" بأنه كان لدى سيدها عدة تماثيل صينية صغيرة قال لها إنها ثمينة جداً، لكن هذه التماثيل اختفت! والحادث يبدو على هذا الوجه جريمة اعتداء وسرقة، لكن هناك كثيرا من العقبات التي تقوم في وجه هذا التعليل فقد كان يقيم مع القتيل في البيت شخصان، "**بتسي أندروز**" وهي من أهل قرية "**هوباتون**"، وخادم خشن الهيئة يدعى "**روبرت جرانت**"... وكان "**جرانت**" قد ذهب إلى المزرعة لإحضار الحليب (اللبن) كعادته كل يوم، وخرجت "**بتسي**" لتتلهى بالحديث قليلا مع إحدى الجارات... ولم تمكث بعيدا عن البيت أكثر من عشرين دقيقة فيما بين العاشرة والعاشرة والنصف، ولاشك في أن الجريمة قد ارتكبت في تلك الفترة. وكان "**جرانت**" أول من عاد إلى البيت ودخل من الباب الخلفي الذي كان مفتوحا؛ إذ إنه ليس من عادة أهل هذه القرية إغلاق أبوابهم ولاسيما في رابعة النهار، وبعد أن وضع الحليب في المطبخ، ذهب إلى غرفته ليقرأ صحيفته ويدخن قليلا... ثم اقبلت "**بتسي**" وذهبت إلى غرفة الجلوس فطالعها ذلك المنظر الهائل، وأرسلت المرأة صيحة مدوية تكفي لإيقاظ أهل القبور، وكل هذا واضح لا غموض فيه ولا التواء، ولكنني رأيت أن القاتل جريء مستهتر، إذ لم يكن أمامه مندوحة عن سلوك الشارع الرئيسي بالقرية، أو التسلل من الفناء الخلفي لأحد الجيران... وشاليه "**الجرانيت**" تكتنفه البيوت من كل جانب كما ترى، فكيف اتفق أن لم ير القاتل أحد؟ بعث هذا الخاطر في نفسي الشك والارتياب، فأخذت أتلفت حولي باحثًا متقصيًا، ورأيت اختفاء تلك التماثيل الصينية الصغيرة مسالة حرية بالتروي والتفكير، فهل كان من الممكن أن يخطر ببال أي لص عادي أن هذه التماثيل

ثمينة عظيمة القيمة؟ ثم إنه كان من الجنون محاولة ارتكاب هذه الجريمة في وضح النهار؛ إذ كان ممكنا أن يصيح القتيل مستغيثا. فقال السيد "**أنجلز**":

– أظن يا سيدي المفتش أن الخدش الذي بالرأس حدث قبل الموت.

– أصبت يا سيدي. لقد ضربه القاتل ضربة أفقدته الوعي ثم حز عنقه، هذا واضح أتم الوضوح، لكن بحق شياطين الجحيم كيف جاء القاتل وكيف انصرف؟ إن أهل القرى الصغيرة يلاحظون فوراً كل من يقدم عليهم من الغرباء، ولا ريب في أنه لم يحضر إلى البيت رجل غريب، وعدت إلى البحث والاستقصاء، وقد أمطرت السماء في الليلة الماضية فرأيت آثار أقدام واضحة داخلة إلى المطبخ وخارجة منه، أما في غرفة الجلوس فكانت مجموعتان من آثار الأقدام فقط؛ إذ إن الطباخة "**بتسي**" وقفت ببابها ولم تدخلها، وهذه آثار قدمي السيد "**هوالي**" الذي كان يلبس خفًّا من القماش وآثار أقدام شخص آخر، وكان الرجل الآخر قد وطئ الدماء السائلة على الأرض، فتتبعت آثار قدميه الدموية إلى المطبخ، وعند ذلك انقطعت الآثار، وهذه هي النقطة الأولى، وكانت بأعلى إطار باب غرفة "**روبرت**" الخادم بقعة خفيفة من الدم، وهذه هي النقطة الثانية، أما النقطة الثالثة فهي عندما أخذت حذاء "**جرانت**" وكان قد خلعه وقارنته بآثار قدمي الرجل الثاني فانطبق عليه تمام الانطباق، وكان في هذه القرائن كلها الدليل القاطع على أن المجرم من أهل البيت، فالقيت القبض على "**روبرت جرانت**"، فما الذي تظنون أنني وجدته في حقيبته؟ التماثيل الصينية الصغيرة وتذكرة سفرا وقد ظهر أيضا أن "**روبرت جرانت**" هو "**إبراهام بيجز**" الذي سجن منذ خمس سنين في جناية خيانة وسطو، فما رأيكم في هذا أيها السادة؟ فأجاب "**بوارو**":

– أظن المسألة واضحة جداً... بل هي واضحة وضوحا يستثير الدهشة والعجب، إن هذا الرجل "**بيجز**" أو "**جرانت**" هو بغير شك مغفل أحمق غير متعلم؟

– إنه كذلك... رجل عادي جاهل لا يفقه ما قد يعنيه أثر قدم.

– لا ريب في أنه لا يقرأ القصص البوليسية! حسنا... إنني أهنئك أيها المفتش... هل تسمح لنا بمعاينة مكان الجريمة؟

- سآخذكم إلى هناك بنفسي في الحال، فإني أحب أن تروا آثار الأقدام... وسرنا إلى هناك من فورنا وقد تقدمنا مفتش البوليس والسيد "**أنجلز**" فتأخرت مع "**بوارو**" قليلا حتى لا يسمع المفتش حديثنا وقلت:

- ما رأيك في هذه المسألة يا "**بوارو**"؟ هل فيها أكثر مما تدل عليه الظواهر؟

- هذا هو السؤال حقًا يا صديقي، لقد أوضح "**هوالي**" في رسالته وضوحا تاما أن "الأربعة العظام" في أثره، ونحن -أنا وأنت- نعلم أن "الأربعة العظام" ليسوا أشباحا من أشباح الخيال التي يخوف بها الأطفال، لكن الدلائل كلها تشير إلى أن هذا الرجل "**جرانت**" هو مرتكب الجريمة، فلماذا فعل ذلك؟ أمن أجل هذه التماثيل الصينية الصغيرة؟ أم هو من صنع "الأربعة العظام"؟ إني أعترف بأن الفرض الأخير أدنى إلى العقل والمنطق، فمهما تكن قيمة هذه التماثيل فإن رجلا من طبقته لا يمكن أن يدرك حقيقتها إلى درجة اقتراف جريمة قتل من أجلها على الأقل، فقد كان بوسعه أن يسرق هذه التماثيل ويفر بها بدلا من ارتكاب مثل هذه الجريمة الوحشية التي لا فائدة منها. أجل، إني أخشى أن يكون صديقنا مفتش البوليس قد أغفل استخدام خلايا مخه الرمادية الصغيرة، لقد عُني بقياس آثار الأقدام، ولكنه لم يعن بالتأمل وتنسيق أفكاره.

- 4 -

أخرج المفتش من جيبه مفتاحا فتح به باب شاليه "**الجرانيت**"، وكان النهار صحوا لا مطر فيه فلم يكن من المنتظر أن تترك أقدامنا أي أثر، ولكننا مع ذلك مسحناها جيدا بالحصيرة الموضوعة عند الباب، وبرزت امرأة وتحدثت إلى المفتش، فانتحى ناحية ثم تكلم من فوق كتفه قائلا:

- انظر ما شئت في المكان وشاهد كل ما تمكن مشاهدته يا سيد "**بوارو**"، وسأعود بعد بضع دقائق، وبهذه المناسبة ها هو حذاء "**جرانت**"، فقد جئت به معي لكي تقارن بين الآثار.

وذهبنا إلى غرفة الجلوس ووقع قدمي المفتش يتلاشى وهو يغادر البيت، وانصرف

السيد "**أنجلز**" إلى مشاهدة بعض التحف الصينية الموضوعة على منضدة في ركن الغرفة، أما أنا فاخذت ألاحظ حركات صديقي بمزيد من العناية والاهتمام، وكانت الأرض مفروشة باللينوليوم الذي تظهر عليه الآثار واضحة جلية، كما كان في نهاية الغرفة باب يؤدي إلى المطبخ، وفي المطبخ باب يفتح على المغسل الذي فيه الباب الخلفي للبيت، وباب آخر يفتح على مخدع النوم الذي كان يشغله "**روبرت جرانت**"، وبعد أن فرغ "**بوارو**" من فحص هذه المواقع جميعا راح يعقب على ذلك بصوت خافت:

- هنا كانت الجثة، فإن هذه البقعة الكبيرة الداكنة وما حولها من رذاذ يدل على ذلك... وهناك آثار خف من القماش وحذاء رقم 9 ولكنها مضطربة مختلطة، وهنا خطان من آثار الأقدام يتجه أحدهما إلى المطبخ ويخرج الآخر منه، وقد جاء القاتل من هذه الناحية كائنا من كان، هل الحذاء معك يا "**هاستنجز**"؟ أعطني إياه. وراح يقارنه مدققًا في الآثار ثم قال:

- أجل... إن الخطين كليهما لرجل واحد... "**روبرت جرانت**" لقد جاء من هذا الطريق، وبعد أن قتل الرجل عاد إلى المطبخ ولقد وطئ الدم الجاري على الأرض... أترى هذه اللطخ التي تركها في خروجه؟ ولا يمكن أن تتبين في المطبخ إذ اجتمع به أهل القرية جميعا، وقد ذهب إلى مخدعه الخاص... كلا، بل عاد قبل ذلك إلى موقع الجريمة... فهل كان لأخذ التماثيل الصغيرة؟ أم تراه نسي شيئًا يدل عليه ويثبت إجرامه؟ قلت:

- لعله قتل الرجل عند دخوله الغرفة للمرة الثانية.

- كلا... إنك غير دقيق الملاحظة فإن أثرًا من الآثار الخارجة من الغرفة والملوثة بالدم يعلوه أثر آخر متجه إليها، إني لأعجب لماذا عاد إلى الغرفة؟ أيمكن أن تكون سرقة التماثيل لم تخطر له إلا بعد ارتكابه جريمة القتل؟ إن هذا فرض سخيف ينبو عنه العقل.

- لقد ترك من الأدلة ما لا يترك له أملا في الإفلات من عواقب جرمه.

- أجل يا "**هاستنجز**"، وهذا ينافي العقل والمنطق، فلندخل غرفة نومه، ها هي

بقعة الدم بأعلى إطار الباب، وهذه آثار أقدام خفيفة يشوبها الدم، إنها آثار قدمي "**روبرت جرانت**" وهي الآثار الوحيدة التي نجدها بجانب الجثة، فـ"**روبرت جرانت**" إذن هو الوحيد الذي اقترب من البيت. قلت:

– وما رأيك في المرأة العجوز؟ لقد كانت في البيت وحدها عندما ذهب "**جرانت**" لإحضار الحليب (اللبن)، فمن الممكن أن تكون قتلته ثم خرجت، وما كانت قدماها لتتركا أثرا؛ إذ لم تكن قد خرجت من البيت وتلوثت قدماها بالأوحال.

– حسن جدًّا يا "**هاستنجز**"، لقد فكرت في هذا الفرض ونبذته، إن "**بتسي أندروز**" من هذه القرية، وجميع أحوالها معروفة، فلا يمكن أن تكون لها صلة بـ"**الأربعة العظام**". وفوق ذلك فقد كان "**هوالي**" على كبر سنه عظيم القوة، كلا... إن هذه الجريمة من عمل رجل لا امرأة.

– لا أخال "الأربعة العظام" تمكنوا من أن يضعوا بالسقف جهازا شيطانيًّا يهبط من تلقاء نفسه على عنق "**هوالي**" فيحزه ثم يرتفع ثانية؟!

– لا أجهل يا "**هاستنجز**" أن لك خيالا خصيبًا جدًّا ولكني أرجو أن تحد من جماحه قليلا!

فامسكت عن الكلام، ومضى "**بوارو**" يطوف بأرجاء البيت باحثا منقِّبا في الغرف والدواليب وعلى وجهه علامات الحيرة والشك، ثم صاح على حين فجأة صيحة ذكرتني بنباح كلاب "**بوميرانيا**"، فبادرت إليه فوجدته واقفا في مخزن المؤونة وهو يلوح منفعلا بفخذ خروف في يده! وهتفت مرتاعا:

– ماذا دهاك يا عزيزي "**بوارو**"؟ هل أصابك مس من الجنون؟

– انظر إلى هذه الفخذ بربك! تأملها جيدا! وتأملتها بكل ما استطعت من الدقة والإمعان. نظرت فلم أر بها شيئًا غير عادي، وقلت له ذلك فقال:

– ألا ترى هذه... وهذه... وهذه؟ وكان يوضح كل "هذه" بوخزة عنيفة بأصبعه في الفخذ البريئة المسكينة فتطير عند كل وخزة كرة صغيرة من الثلج، ولقد اتهمني "**بوارو**" منذ لحظة بالشطط والإسراف في الخيال، ولكني أراه الآن

يتجاوز كل حد في الشطط والإسراف، فهل يظن حقًّا أن هذه الكريات الثلجية الصغيرة سم زعاف؟ إن هذا هو المحمل الوحيد الذي استطعت أن أحمل عليه حماسته وانفعاله. وقلت:

– هذه فخذ مثلجة مستوردة من "**نيوزيلندا**" كما تعلم. فشخص إليٍّ ببصره لحظة ثم انفجر ضاحكا ضحكة عجيبة وهو يقول:

– ما أعجب صديقي "**هاستنجز**"، إنه ليعرف كل شيء. وألقى بالفخذ في الصحفة، ثم غادر مخزن المؤونة ونظر من النافذة ثم قال:

– ها هو صديقنا المفتش قادم، لقد رأيت كل ما أريد رؤيته هنا. وراح ينقر بأصابعه على المائدة ساهما مفكرا ثم سألني فجاة:

– في أي يوم نحن يا صديقي؟ أجبت في شيء من العجب:

– يوم الاثنين. ماذا...؟

– آه! يوم الاثنين؟ إنه من أيام النحس. ومن الخطإ أن يرتكب المرء جريمة يوم الاثنين. وعدنا إلى غرفة الجلوس فأخرج ترمومترا ألصقه بالجدار ثم قال:

– 21 درجة مئوية... إنه يوم مثالي من أيام الصيف في "**إنجلترا**". وكان "**أنجلز**" لا يزال عاكفا على فحص التحف الصينية، فسأله "**بوارو**":

– ألا يلذ لك هذا البحث يا صديقي؟ فابتسم "**أنجلز**" قائلا:

– هذا ليس من عملي كما ترى، إنني خبير ببعض الأشياء، لكن هذا البحث ليس من بينها، وهكذا أقف في المؤخرة متنحيا عن الطريق، فقد تعلمت الصبر والأناة في الشرق.

وأقبل المفتش وراح يعتذر عن غيابه، وأصر على أن يطوف بنا في أرجاء البيت من جديد، ولكننا غادرناه أخيرا... وقال "**بوارو**" ونحن نسير في الشارع:

– إني أقدر أدبك الجم، لكن هناك رجاء آخر أتقدم به إليك.

– لعلك تريد أن ترى الجثة يا سيدي...

– كلا يا صديقي! إن الجثة لا تعنيني إطلاقًا، إنما أريد رؤية "**روبرت جرانت**"...

– إذن فلابد من أن تعود معي إلى "**مورتون**" يا سيدي.

– حسنا... سأذهب معك... لكن يجب أن أراه وأحادثه على انفراد. فقال المفتش مترددا:

– لا أظن أنني أستطيع ذلك يا سيدي.

– إني واثق بأنك إذا استأذنت في ذلك "**سكوتلانديارد**" فسيفوضون إليك الأمر تفويضا مطلقا.

– لقد سمعت عنك كثيرا يا سيدي وأعلم أنك كثيرا ما أسديت إلينا معونات لا تنكر، لكن ما تطلبه مناف للأوامر. فقال "**بوارو**" بهدوء:

– ولكنه على الرغم من ذلك فإن الأمر ضروري جداً... إنه ضروري لهذا السبب... وهو أن "**جرانت**" ليس القاتل.

– ماذا؟ ومن يكون القاتل إذن؟

– إن القاتل في نظري أقرب إلى الشباب، وقد جاء إلى البيت في عربة تركها في الخارج، ثم دخل المنزل، وارتكب جريمة القتل، ثم غادره واستقل عربته ثانية، وكان عاري الرأس وثيابه ملوثة بالدماء قليلا.

– لكن... لكن كان يجب أن يراه أهل القرية جميعا!

– إلا في ظروف معينة.

– إلا إذا كانت الجريمة وقعت إبان الظلام، ولكنها حدثت في وضح النهار! فلم يزد "**بوارو**" على الابتسام... واستطرد المفتش قائلا:

– والعربة والجواد يا سيدي؟ لقد مر بالبيت عدد كبير من العربات ولا يمكن تمييز آثار عربة معينة من بين آثارها جميعا.

–لا يمكن تمييزها بالبصر، لكن هذا ممكن بعين العقل. فمس المفتش جبينه وهو يبتسم لي ابتسامة ذات معنى، ولكني كنت واثقا بحصافة "**بوارو**" أشد الثقة على الرغم من حيرتي وعجبي.

وانتهت هذه المناقشة بذهابنا جميعا مع المفتش إلى "**مورتون**"... وأخذنا أنا و"**بوارو**" إلى "**جرانت**"، لكن كان يجب أن يحضر أحد المعاونين اجتماعنا به.

وتكلم "بوارو" في الموضوع مباشرة دون أي تمهيد فقال:

– إني أعلم يا "جرانت" أنك بريء من هذه الجريمة، فقص عليَّ كل ما حدث.

وكان السجين متوسط القامة، على شيء من الدمامة، تبدو عليه سمات أهل الشر ومعتادي السجون. وهتف شاكيا:

– أقسم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، وأن شخصا آخر دس تلك الدمى الصغيرة في أمتعتي. إنها تهمة أحكم تلفيقها ضدي لقد ذهبت عند عودتي إلى غرفتي رأسا كما قلت، ولم أشعر بشيء قط حتى سمعت صياح "بتسي"، فاللهم عونك... إنك لتعلم أني بريء! فوقف "بوارو" وهو يقول:

– إذا لم يكن بوسعك الإفضاء إليَّ بالحقيقة، فلا شأن لي بك.

– لكن...

– إنك لم تذهب إلى غرفتك... وكنت تعلم أن سيدك ميت كما كنت تتأهب للفرار عندما اكتشفت الجريمة الرهيبة. فنظر الرجل إلى "بوارو" مشدوها ذاهلا. وقال "بوارو":

–أليست هذه هي الحقيقة؟ إني أؤكد لك بشرفي أن الصراحة هي سبيلك الوحيد الآن إلى النجاة. فاندفع الرجل يقول:

– سأجازف بذلك. إن الأمر كما تقول، فقد دخلت البيت وقصدت رأسا إلى سيدي حيث ألفيته مضرجا بدمائه، وعند ذلك تجلى الموقف رهيبا هائلا، فسيبحثون في ماضي وسيحكمون باني مرتكب تلك الجريمة الشنعاء، ولم أر أمامي سبيلا للنجاة سوى المبادرة إلى الفرار قبل اكتشاف الجريمة.

– والتماثيل الصغيرة؟ لعلك أخذتها بدافع من غريزتك. إنك سمعت سيدك بالتأكيد يقول إنها عظيمة القيمة، ولم تر في سرقتها ما يزيد موقفك سوءاً، والآن أجب عن هذا السؤال. هل أخذت التماثيل عند ذهابك إلى الغرفة أول مرة أم ثاني مرة؟

– إني لم أذهب إلى الغرفة مرة ثانية، فقد كان حسبي مرة واحدة.

– أواثق أنت بذلك؟

– تمام الثقة.

– حسنا، والآن، متى خرجت من السجن؟

– منذ شهرين.

– وكيف التحقت بهذا العمل؟

– بواسطة إحدى جمعيات مساعدة المساجين إذ قابلني عند خروجي رجل من رجالها.

– وماذا كانت هيئته؟

– لم يكن قسيسا حقًّا، ولكنه كان أشبه برجال الدين، قبعة رخوة سوداء، وتردد في إلقاء الكلمات، وكانت له سن مكسورة، وعلى عينيه نظارة، ويسمى "**سوندرز**"، وقال لي إنه يرجو أن أكون نادما راغبا في التوبة، وأرسلني إلى "**هوالي**" بتوصية منه. فنهض "**بوارو**" وقال:

– أشكرك، إني أعرف الآن كل شيء، فاصبر قليلا. ثم وقف عند الباب قائلا:

– ألم يعطك "**سوندرز**" حذاء؟ فهتف "**جرانت**" مشدوها:

– أجل.. لكن كيف عرفت ذلك؟ أجاب "**بوارو**":

– إن مهمتي هي معرفة الأشياء. وبعد أن تحدث قليلا مع مفتش البوليس ذهبنا نحن الثلاثة إلى مطعم "**الأرنب الأبيض**" لتناول الطعام، وسأل "**أنجلز**" مبتسماً:

– هل وفقت إلى استجلاء الحقيقة؟

– أجل... إن الحادث الآن واضح أشد الوضوح، ولكني سأجد كثيراً من الصعوبة في إثبات ذلك، لقد قتل "**هوالي**" بأمر "الأربعة العظام"... لكن "**جرانت**" ليس القاتل، لقد ألحق "**جرانت**" بهذا العمل رجل شديد الدهاء رسم خطة محكمة لكي يجعله كبش الفداء، وهي غاية سهلة بالنظر إلى ماضي "**جرانت**" الملوث. وأعطاه حذاء، بينما احتفظ هو بحذاء آخر مطابق له أتم المطابقة وكانت المهمة بعد ذلك سهلة ميسورة فها هو "**جرانت**" يغادر البيت، و"**بتسي**" مشغولة بالهذر مع جارتها (ولعلها كانت تفعل ذلك كل يوم) فليس على صاحبنا إلا أن يذهب إلى البيت في عربة وهو لابس ذلك الحذاء ثم يدخل المطبخ، وينفذ

منه إلى غرفة الجلوس حيث يصرع القتيل بضربة ثم يحز عنقه، وبعد ذلك يعود إلى المطبخ ويخلع حذاءه ويلبس حذاء آخر ويخرج حاملا الحذاء الأول حيث يستقل عربته وينصرف. فحدج "**أنجلز**" "**بوارو**" ببصره وقال:

– لكن لا تزال هناك ثغرة لماذا لم يبصره أحد؟

– آه! هنا تتجلى براعة رقم 4، لقد رآه الناس جميعا... ومع ذلك لم يره منهم أحد. إنه جاء في عربة جزارة! فهتفت عجبا:

– فخذ الخروف؟

– تماما يا "**هاستنجز**"... فخذ الخروف، لقد أكد الناس جميعا أنه لم يحضر أحد إلى البيت هذا الصباح، ولكني مع ذلك وجدت بمخزن المؤونة فخذ خروف لا يزال فتات الثلج عالقا بها، واليوم هو يوم الاثنين ولا شك في أن الفخذ أحضرت هذا الصباح إذ لو كانت قد أحضرت يوم السبت في هذا الجو الحار لما ظل الثلج بها طيلة يوم الأحد، فلا ريب في أن رجلا قد جاء إلى البيت، ولا شك في أنه كان رجلا لا تستلفت ملابسه الأنظار إذا تناثرت عليها بقع من الدم. فهتف "**أنجلز**" بإعجاب:

– يا لها من حيلة بارعة؟

– أجل... إن رقم 4 بارع الحيلة شديد الدهاء. فغمغمت قائلا:

– أهو في براعة "**هركيول بوارو**"؟ ورشقني صديقي بنظرة لوم وتأنيب ثم قال:

– إن من المزاح ما لا ينبغي لك يا "**هاستنجز**"، ألم أنقذ رجلا بريئا من حبل الجلاد؟ حسبي هذا عملا في يومي.

– 5 –

لا يكاد يخالجني أي شك في أن المفتش "**ميدوز**" لم يقتنع ببراءة "**روبرت جرانت**" حتى بعد أن قرر مجلس التحقيق إطلاق سراحه؛ إذ كانت الأدلة القائمة ضده قوية ثابتة، فهناك سوابق الرجل ووجود التماثيل الصينية في حقيبته، وانطباق حذائه على الآثار الموجودة ببيت "**يوناثان هوالي**" القتيل تمام الانطباق بيد ان

"**بوارو**" استطاع أن يقنع المجلس ببراءة الرجل، كما تقدم شاهدان وأقرّا بأنهما أبصرا عربة جزارة تحضر إلى البيت في صباح ذلك اليوم، وشهد الجزار المحلي بأن عربته لا تذهب إلى هناك إلا في يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، بل لقد أمكن العثور على امرأة تذكرت أنها أبصرت عامل جزار يغادر البيت، ولكننا لم نقف منها على وصف مفيد له، فهي لا تذكر إلا أنه كان حليق الوجه، متوسط القامة، ليس في منظره إلا ما يدل على أنه من عمال الجزارين حقًا. وقال لي "**بوارو**" بعد انتهاء التحقيق:

– إن هذا الرجل فنان يا "**هاستنجز**"، فهو لا يتنكر بلحية مستعارة ونظارة زرقاء، أجل إنه يغير هيئته، لكن هذا أقل الأشياء خطرا في أمره، إذ إنه يتفانى تماما في الشخصية التي ينتحلها حتى يقوم بها طبيعية لا تمثيلا.

ولم أجد بدًّا من الاعتراف بأن الرجل الذي زارنا زاعما أنه من مستشفى "**هانويل**" كان حارسا حقيقيًّا من حراس مستشفيات المجانين لا سبيل إلى الشك في أنه كذلك حقيقة، وداخلني الشعور بالخيبة والفشل وبدا لي أننا لم نفد شيئا من حادث "**دارتمور**"، لكن "**بوارو**" خالفني في ذلك قائلا:

– إننا لنتقدم، ففي كل مرة نعرف قليلا عن تفكير هذا الرجل وأساليبه، دون أن يعرف هو شيئا عن تفكيرنا وأساليبنا. فقلت معترضا:

– أما من هذه الناحية فإني وإياه سواء في هذا الشأن إنه ليلوح لي أنه ليست لديك أية خطة وأنك تجلس مترقبا أن يقوم هو بعمل ما. وضحك "**بوارو**" قائلا:

– إنك لا تتغير يا صديقي أبدًا، ولا تفتأ تريد الوثوب على خصمك وإنشاب مخالبك في عنقه! وطُرق الباب إذ ذاك فأردف قائلا:

– ربما تكون الفرصة التي تتشوق إليها قد وافت فيكون الطارق صديقنا. وضحك من اكتئابي عندما رأيت أن الطارق هو المفتش "**جاب**" ورجل آخر معه. وقال المفتش:

– مساء الخير يا سيدي، اسمح لي بأن أقدم إليك النقيب "**كنت**" من قلم المخابرات السِّرية بـ"**الولايات المتحدة**".

وكان النقيب "كنت" امريكيًا مديد القامة، نحيف البنية، له وجه لا تنم أساريره عن شيء كأنه وجه تمثال من الحجر. وقال المفتش "جاب" عندما استقر بنا المقام:

– فلنتحدث الآن في العمل. لقد أزجى إليَّ السيد "بوارو" رجاء، فهو مهتم بأمر هيئة تطلق على نفسها اسم "الأربعة العظام" وقد سألني أن أخطره في الحال إذا عثرت بذكر لها في أثناء قيامي بأعمالي الرسمية ولم أهتم بالأمر كثيرا، ولكنني تذكرت طلبه عندما جاءني النقيب بقصة على جانب غير قليل من الغرابة، ورأيت أن نزور السيد "بوارو" . ونظر "بوارو" إلى النقيب "كنت" فقال هذا:

– لعلك تذكر يا سيد "بوارو" أنك قرأت عن زوارق طوربيد ونسافات غرقت لاصطدامها بالصخور على الشاطئ الامريكي وكان ذلك عقب الزلزال الياباني، وعلل الحادث بانه نتيجة للتيارات العنيفة الناجمة عن الزلزال، ولكنه حدث منذ زمن غير بعيد أن اعتقلت جماعة من اللصوص ورجال العصابات وضبطت معهم أوراقا تضفي على الحادث لونا جديدا، فقد أشارت إلى هيئة تسمى "الأربعة العظام" وأوردت وصفا غير كامل لتركيبات لاسلكية قوية تنبعث عنها قوة لا يعرف لها مثيل، ويمكن تركيز شعاعها الهائل في أية نقطة، ومع أن القوى المزعومة لهذا الاختراع تبدو لي خيالية تنبو عن العقل، فقد بعثت بالأوراق إلى الرئاسة، فعكف على فحصها رجل من أعظم رجال العلم عندنا، على أن احد رجال العلم البريطانيين قد القى أخيرا محاضرة عن هذا الموضوع أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني، وعلى الرغم من أن زملاءه لم يهتموا بما قال كثيرا وظنوه مبالغًا في الخيال فقد أصر هذا العالم على آرائه وأعلن انه هو شخصيًا على وشك النجاح في اختباراته. فقال "بوارو" باهتمام:

– حسنا؟

– وقد رئي أن أحضر إلى "إنجلترا" وأجتمع بهذا العالم، وهو شاب في مقتبل العمر يسمى "هاليداي"، كما انه على رأس الثقات في هذا الموضوع، وكان عليَّ أن أسأله هل هذا الاختراع المزعوم في حيز الممكنات حقًا. فسألته بشوق:

– وهل كان كذلك؟

– هذا هو ما أجهله، فإني لم ألق السيد "**هاليداي**"، ولا أتوقع لقاءه مطلقا.

وقال المفتش "**جاب**" موجزا:

– إن حقيقة الأمر هي أن "**هاليداي**" قد اختفى.

– متى؟

– منذ شهرين.

– وهل أبلغ اختفاؤه إلى البوليس؟

– لقد أبلغ إلينا بالتأكيد. إن زوجته والهة ملتاعة ففعلنا كل ما في وسعنا، وأنا أعلم أن جهودنا ذاهبة أدراج الرياح. إن الرجل الذي يختفي في هذا الطريق لا فائدة في البحث عنه.

– في أي طريق؟

– في "**باريس**".

– أجل، ذهب إليها في مهمة علمية كما زعم، فقد كان من الضروري أن ينتحل لسفره سببا من الأسباب، ولكنك تعرف ما يعنيه اختفاء أحد من الناس في "**باريس**"، فإما أن يكون أشرارها قد فتكوا به، وإما أن يكون اختفى بمحض اختياره... والوجه الثاني هو الغالب في حوادث الاختفاء. وإنك لتعرف "**باريس**" ومجالي اللهو والعبث فيها، وكان ثمة خلاف بين "**هاليداي**" وزوجته قبيل سفره، وهكذا ترى أن الحادث واضح. فقال "**بوارو**" مفكرا:

– إني لأعجب لذلك. وكان الأمريكي يلاحظه بفضول فقال:

– هل لك أن تخبرني يا سيدي بمعنى "الأربعة العظام"؟ أجاب "**بوارو**":

– إن "الأربعة العظام" عصابة دولية يتزعمها صيني يعرف برقم 1، ورقم 2 أمريكي، ورقم 3 امرأة فرنسية، ورقم 4 أو "**المدمر**" إنجليزي. فهتف الأمريكي:

– امرأة فرنسية؟ وقد اختفى "**هاليداي**" في "**فرنسا**"، لعل لهذا الأمر دلالته... ما اسمها؟

– لا أدري ولا أعرف عنها شيئا.

– وماذا كانت غاية "الأربعة العظام" من إغراق تلك السفن؟ أهم من صناع "ألمانيا"؟

– إن "الأربعة العظام" لا يعملون إلا لحساب أنفسهم يا سيدي النقيب، وهم يرمون إلى السيطرة على العالم. فانفجر الأمريكي ضاحكا، ولكنه كف عن الضحك عندما رأى على وجه "**بوارو**" سمات الجد. وقال "**بوارو**" وهو يشير بإصبعه:

– أنت تضحك يا سيدي... إنك لا تتمعن ولا تستعمل خلايا مخك الرمادية الصغيرة... من هم هؤلاء الرجال الذين يدمرون جزءا من بحريتكم كتجربة بسيطة لقوتهم؟ إن هذا هو سر الحادث يا سيدي... كان امتحانا لقوة الجذب المغناطيسي التي يملكونها. فقال المفتش "**جاب**" ضاحكا:

– لقد قرأت كثيرا عن أفذاذ المجرمين ولكني لم ألق أحداً منهم قط... وعلى كل حال فقد سمعت قصة النقيب "**كنت**"، فهل من شيء آخر أستطيع عمله؟

– أجل يا صديقي... يمكنك أن تعطيني عنوان "**هاليداي**"، وتكتب كلمات قلائل تقدمني بها إلى زوجته. وهكذا كنا في اليوم التالي في طريقنا إلى بيت "**تشيتوند**" بالقرب من قرية "**تشوبهام**" بمقاطعة "**سري**"... واستقبلتنا فوراً السيدة "**هاليداي**"، وهي امرأة طويلة حسناء عصبية سريعة الحركة، وشرح لها "**بوارو**" سبب زيارتنا فقالت:

– إني لشاكرة لك هذا الاهتمام يا سيد "**بوارو**"، ولقد سمعت عنك! واعتقادي أنك لن تكون كرجال "**سكوتلانديارد**" أو البوليس الفرنسي الذين يعتقدون أن زوجي قد رحل مع امرأة أخرى، إنه لم يكن من هذا الطراز، ولم يكن يشغله في العالم بأسره سوى عمله، وهذا هو السبب في معظم ما كان بيننا من الخلاف... لقد كان عمله يشغله عني. فقال "**بوارو**" مواسيا:

– إن هذه طبيعة رجال الإنجليز... فإذا لم يشغلهم العمل شغلتهم الرياضة والألعاب! إنهم ليحملون هذه الأمور على محمل الجد والاهتمام... والآن أرجو أن تقصي عليَّ يا سيدتي ظروف اختفاء زوجك بكل ما تستطيعين من الدقة

والتفصيل.

– إن زوجي سافر إلى "**باريس**" يوم الخميس 20 تموز (يوليو) لمقابلة أشخاص عديدين يتصلون بعمله، ومن بينهم السيدة "**أوليفييه**" . فأومأ "**بوارو**" برأسه عند ذكر اسم هذه الكيماوية التي طغى اسمها على اسم السيدة "**كوري**" نفسها، وأنعمت عليها الحكومة الفرنسية بأرفع الأوسمة وغدت من أبرز شخصيات الوقت الحاضر. واستطردت السيدة "**هاليداي**" تقول:

– وقد بلغ "**باريس**" في المساء ونزل بفندق "**كاستليون**" في شارع "**كاستليون**" ... وكان على موعد مع الأستاذ "**بورجونو**" في صباح اليوم التالي فذهب إليه، واتفق الرجلان على أن يشهد زوجي بعض التجارب بمعمل الأستاذ في اليوم التالي، وتناول الغداء وحده في "**كافيه رويال**" وتنزه قليلا في غابات "**بولونيا**" ثم زار السيدة "**أوليفييه**" ببيتها في "**باسي**" ... وكانت أحواله كلها طبيعية ليس فيها ما يسترعي النظر... وغادر بيت هذه السيدة في الساعة السادسة... ولا يعرف أحد أين تناول عشاءه، ثم عاد إلى الفندق حوالي الساعة الحادية عشرة وقصد إلى غرفته رأسا بعد أن سأل هل وصلت رسائل باسمه، وفي الصباح غادر الفندق ولم يره أحد بعد ذلك.

– في أية ساعة غادر الفندق؟ هل خرج في الوقت المناسب للذهاب إلى موعده في معمل الأستاذ "**بورجونو**"؟

– لا ندري، فلم يره أحد وهو يغادر الفندق، لكن طعام الإفطار لم يقدم إليه، وهذا دليل على أنه خرج مبكرا.

– وقد يكون خرج بعد عودته في الليلة السابقة.

– لا أظن ذلك فقد كانت حالة الفراش تدل على أنه نام به، وما كان الحارس الليلي لينسى أي شخص يغادر الفندق في تلك الساعة المتأخرة.

– هذه ملاحظة صحيحة حقًّا يا سيدتي... ولنا أن نستنتج منها أنه غادر الفندق في بكرة الصباح التالي، وهو أمر يبعث على شيء من الطمأنينة؛ إذ لا يمكن أن يكون قد وقع بين أيدي أوباش "**باريس**" وأشقيائها في مثل ذلك الوقت

من النهار... والآن هل خلف بالفندق جميع أمتعته؟ وبدا على السيدة "**هاليداي**" التردد في الجواب ثم قالت:

– كلا. لا شك في أنه أخذ معه حقيبة صغيرة. فقال "**بوارو**" وهو مستغرق في التفكير:

– إني لأعجب أين أمضي ذلك المساء... ولو عرفنا ذلك لعرفنا كثيراً من الأشياء... فمن الذي التقى به؟... إن هذا السر بأكمله، إنني –يا سيدتي– لا أوافق على نظرية رجال البوليس؛ إذ إنهم دائما يتبعون المثل المشهور "فتش عن المرأة"... ولكن من الواضح أنه وقع في تلك الليلة ما حمل زوجك على تغيير خططه... ولقد قلت إنه سأل عن رسائل باسمه عندما عاد إلى الفندق، فهل كان ثمة شيء من ذلك؟

– رسالة واحدة لاشك في أنها الرسالة التي كتبتها إليه في يوم سفره من "**إنجلترا**". فاستغرق "بوارو" في تفكير عميق نحو دقيقة ثم قال:

– إن حل هذا اللغز الغامض في "**باريس**" يا سيدتي، ولابد من سفري إليها في الحال.

– ولكن قد مضى على الحادث زمن طويل يا سيدي.

– أجل، لكن يجب أن نطلب الحل هناك. وسار يريد الانصراف، ولكنه وقف عند الباب قائلا:

– أخبريني يا سيدتي... ألم يذكر زوجك أمامك قط عبارة "الأربعة العظام"؟

فقالت السيدة مفكرة:

– "الأربعة العظام"، كلا، لا أذكر شيئا كهذا.

–6–

ما وافى اليوم التالي حتى كنت وصديقي "**بوارو**" في طريقنا إلى "**باريس**"، وقال "**بوارو**" وهو يبتسم:

– إن هؤلاء "الأربعة العظام" يكلفونني كثيرا من الخفة والنشاط فهأنذا أثب هنا

وهناك كصديقنا "**الكلب الآدمي**" . وكنت أعلم أنه يشير بذلك إلى شرطي يدعى "**جيرو**" من أقدر رجال إدارة الأمن في "**باريس**" فقلت:

ـ لعلك تلقاه في "**باريس**". أجاب وهو يقطب جبينه:

ـ أتمنى ألا يحدث هذا فإنه لا يحبني. قلت:

ـ ألا ترى أن من العسير أن نقف على ما فعله إنجليزي مجهول ذات ليلة منذ شهرين؟

ـ عسير جداً يا صديقي، لكن "**هركيول بوارو**" يبتهج دائما بكل مشكل عسير كما تعلم.

ـ أتظن أن "الأربعة العظام" خطفوه؟ فأومأ "**بوارو**" بالإيجاب.

على أن البحث لم يضف كثيرا إلى ما وقفنا عليه من السيدة "**هاليداي**"، فقد اجتمع "**بوارو**" بالأستاذ "**بورجونو**" اجتماعا طويلا حاول خلاله أن يعرف هل تحدث "**هاليداي**" وكيف كان ينوي قضاء تلك الليلة، ولكننا لم نفز بطائل.

وكان المصدر الثاني لما نطلبه من المعلومات هو السيدة "**أوليفييه**" الشهيرة، وقصدنا إلى بيتها في "**باسي**" ففتح لنا خادم في السابعة عشرة أو نحوها، وكان "**بوارو**" قد حصل على موعد مقدما؛ إذ كان معروفا أن السيدة "**أوليفييه**" لا تستقبل أحداً بتاتا دون اتفاق سابق لانهماكها في أبحاثها العلمية. وأدخلنا إلى صالون صغير سرعان ما وافتنا فيه ربة البيت، وكانت السيدة "**أوليفييه**" فارعة الطول، تلبس معطفا مسترسلاً، وعلى رأسها خمار كخمار الراهبات، وكان لها وجه مستطيل مصفر، وعينان سوداوان عجيبتان ينبعث منهما بريق يجعلهما أشبه بعيون المتعصبين من ذوي الهوس الديني... واستقبلتنا بأدب فاتر جاف قائلة:

ـ لقد قابلني رجال البوليس مرارا، واعتقادي أنني لن أستطيع مساعدتكم إذ عجزت عن مساعدتهم. فقال "**بوارو**":

ـ من الممكن يا سيدتي أن تكون أسئلتي غير أسئلتهم ولنبدأ بأولها... فيم دار الحديث بينك وبين السيد "**هاليداي**"؟ وبدت عليها علامات الدهشة وقالت:

ـ بالتأكيد في عملنا وعمله!

– هل ذكر لك النظريات التي أوردها في محاضراته أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني أخيرا؟

– بلا ريب، وكانت هذه أهم ما تناوله الحديث. فقال "**بوارو**" دون اكتراث:

– وكانت نظرياته خيالية... أليس كذلك؟

– هكذا يعتقد بعض الناس، ولكني لا أتفق معهم.

– أترين أنها عملية؟

– عملية تماما. وقد كانت أبحاثي مشابهة لأبحاثه، كما أنها تهدف إلى الغاية نفسها، إن تجارب السيد "**هاليداي**" تحوز مزيد اهتمامي. فأومأ "**بوارو**" برأسه ثم ألقى عليها سؤالا دهشت له أشد الدهشة:

– أين كنتما تتحدثان في هذه المواضيع يا سيدتي؟ أبهذه القاعة؟

– كلا يا سيدي. في المعمل.

– هل أستطيع مشاهدته؟

– بلا ريب. وتقدمتنا إلى الباب الذي دخلت منه فأفضى بنا إلى ممشى صغير وبعد أن اجتزنا بابين ألفينا أنفسنا في المعمل بأدواته وأجهزته الكثيرة المتنوعة التي لم أفهم منها شيئا، وكان هناك شخصان عاكفان على بعض الأعمال، وقدمتهما إلينا السيدة "**أوليفييه**" قائلة:

– الآنسة "**كلود**" إحدى مساعدي. فانحنت لنا فتاة طويلة القامة بادية الجد، وقالت السيدة "**أوليفييه**":

– السيد "**هنري**"... صديق قديم أمين. وانحنى لنا شاب قصير القامة أسمر البشرة.

وراح "**بوارو**" يقلب بصره فيما حوله، وكان هناك بابان آخران غير الباب الذي دخلنا منه، وأخبرتنا السيدة بأن أحدهما يفضي إلى الحديقة، والآخر إلى قاعة أصغر من هذه القاعة مخصصة أيضا للبحث والاختبار، وعند ذلك أعلن "**بوارو**" استعداده للعودة إلى قاعة الاستقبال. وسألها:

– هل كنت وحدك يا سيدتي في أثناء اجتماعك بالسيد "**هاليداي**"؟

– أجل يا سيدي، فقد كان مساعداي في القاعة الصغرى المجاورة للمعمل.

– وهل كان في الإمكان أن يصل حديثكما إليهما... أو إلى غيرهما؟ ففكرت السيدة قليلا ثم هزت رأسها قائلة:

– لا أظن، بل أكاد أكون واثقة بعدم إمكانه إذ كانت الأبواب كلها مغلقة.

– ألا يمكن أن يكون أحد قد اختبأ بالقاعة؟

– إن بالركن دولابا كبيرا... لكن الفكرة غير معقولة.

– مسألة أخرى يا سيدتي... هل ذكر السيد "**هاليداي**" شيئا عما ينتوي عمله في ذلك المساء؟

– لم يقل عن ذلك شيئا يا سيدي.

– أشكرك يا سيدتي وأعتذر عن إزعاجك، أرجو ألا تكلفي نفسك مشقة توديعنا إلى الباب فإننا نعرف طريقنا.

وبلغنا الردهة، وكانت إحدى السيدات تدخل من الباب الخارجي وراحت ترتقي السلم مسرعة، وقد تركت في نفسي مثل الأثر الذي تحدثه أرملة في ثياب الحداد. وقال "**بوارو**" ونحن نبتعد عن البيت:

– إنها لامرأة غير عادية.

– السيدة "**أوليفييه**"؟ أجل إنها...

– كلا... لا أعني السيدة "**أوليفييه**"، إن هذا غني عن البيان! ليس في العالم كثير من العبقريات التي من طرازها، إنما أعني السيدة الأخرى... التي ارتقت السلم. قلت في استغراب:

– إني لم أر وجهها ولا أدري كيف استطعت أنت ذلك مع أنها لم تنظر نحونا. فأجاب "**بوارو**" بهدوء:

– ولهذا قلت إنها امرأة غير عادية، فإن المرأة التي تدخل بيتها (ولاريب في أنها مقيمة بالبيت ما دامت تدخل بمفتاح خاص معها) وترتقي السلم بسرعة دون أن

تلقي نظرة واحدة على زائرين غريبين في الردهة كي تعرف من هما، لهي امرأة من طراز غير عادي... بل غير طبيعي. يا لله! ما هذا؟ وجذبني إلى الوراء في آخر لحظة إذ لم يكد يفعل ذلك حتى هوت إحدى أشجار الممشى وكانت كفيلة بالقضاء علينا لو ظللنا في طريقنا، وراح "**بوارو**" يحدق إليها وهو ممتقع الوجه ثائر الأعصاب... ثم قال:

– لقد نجونا من خطر داهم لم يجل بفكري قط، ولولا عيناي اللتان في مثل حدة عيني القط لكان "**هركيول بوارو**" الآن في غير هذا العالم، وهي كارثة مروعة على العالم، ولهلكت أنت أيضًا يا صديقي... وإن كان هذا لا يعد رزءا قوميًّا. فقلت بامتعاض:

– أشكرك، والآن ما عسى أن نفعل؟ فهتف "**بوارو**":

– نفعل؟ نفكر، سنستعمل هنا وفي الحال خلايانا الرمادية الصغيرة... والآن... هل كان السيد "**هاليداي**" في "**باريس**" حقًّا؟ أجل، فإن الأستاذ "**بورجونو**" الذي يعرفه حق المعرفة رآه وحادثه. قلت:

– ما الذي ترمي إليه بربك؟ ولكنه مضى في حديثه قائلا:

– كان هذا في صباح يوم الجمعة، وقد رئي لآخر مرة في الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم... لكن هل رئي حقًّا؟

– إن البواب...

– إنه بواب ليلي لم تسبق له رؤية "**هاليداي**"، وهذا رجل يقبل إلى الفندق، ويشبه "**هاليداي**" شبها كبيرا (وبوسعنا أن نثق ببراعة صديقنا رقم 4 في مثل هذا الشأن) وبعد أن يسأل عن رسائل يصعد إلى الطابق الأعلى، ويأخذ حقيبة صغيرة وينسل من الفندق في صباح اليوم التالي ولم ير أحد قط "**هاليداي**" في ذلك المساء؛ لأنه كان قد وقع في قبضة أعدائه، ولنسأل أنفسنا الآن هل كان "**هاليداي**" حقًّا هو الذي استقبلته السيدة "**أوليفييه**"؟ أجل، فما كان في وسع أي دعي محتال أن يخدعها وهو يتحدث في موضوع تخصصت فيه، لقد جاء إلى هنا،

واجتمع بالسيدة التي أراد لقاءها، وانصرف فماذا حدث بعد ذلك؟ وقبض "**بوارو**" ساعدي وراح يجرني جرًّا نحو البيت وهو يقول:

– والآن يا صديقي تخيل أننا في اليوم التالي ليوم حادث الاختفاء، وأننا نقتفي آثار الأقدام، إنك تحب آثار الأقدام... أليس كذلك؟ انظر... ها هي آثار أقدام رجل... السيد "**هاليداي**"، وها هو ذا يميل إلى اليمين كما فعلنا، ويمشي مسرعا. آه! ها هي أقدام أخرى تجد في أثره مسرعة... أقدام صغيرة... أقدام امرأة، وها هي ذي تدركه... وهي امرأة رشيقة فتية تسدل على وجهها نقاب الحداد، وتقول له "معذرة يا سيدي... إن السيدة "**أوليفييه**" تطلب عودتك إليها" ويقف السيد "**هاليداي**" وينثني إليها، فإلى أين تأخذه هذه المرأة الفتية؟ إنها لا تريد أن يراها أحد بصحبته، فهل كان من المصادفات أنها لحقت به حيث يتفرع ممشى ضيق يفصل بين حديقتين! وها هي ذي تسير به في هذا الممشى زاعمة أنه أقصر من الممشى الرئيسي، وإلى اليمين حديقة بيت السيدة "**أوليفييه**"، وإلى اليسار حديقة بيت آخر... ومن تلك الحديقة سقطت الشجرة التي كادت تقضي علينا، وأبواب الحديقتين تفتح على هذا الممشى، وهناك الكمين المنصوب لصديقنا "**هاليداي**" فينقض منه الرجال عليه ويحملونه إلى ذلك البيت الذي لا تشغله السيدة "**أوليفييه**".

– يا لله يا "**بوارو**"! أتزعم أنك ترى كل هذا؟

– إني أراه بعين العقل يا صديقي، فلا يمكن أن يكون الأمر قد وقع إلا على هذه الصورة، هيا بنا نعود إلى منزل السيدة "**أوليفييه**".

– أتريد أن تقابلها ثانية؟ فابتسم "**بوارو**" ابتسامة غريبة وقال:

– كلا يا "**هاستنجز**"، إني أريد رؤية وجه سيدة السلم.

– أتظن أنها إحدى قريبات السيدة "**أوليفييه**"؟

– بل أرجح أنها سكرتيرة التحقت بخدمتها منذ عهد غير بعيد. وفتح لنا الباب الغلام نفسه الذي فتحه لنا أول مرة فقال له "**بوارو**":

– هل تستطيع أن تخبرني باسم السيدة التي تلبس شارة الحداد والتي دخلت الآن؟

– السيدة "**فيرونو**"؟ سكرتيرة سيدتي؟

– هذه هي، هل تتفضل بإبلاغها أننا نريد محادثتها لحظة؟

– إني آسف إذ لا شك في أن السيدة "**فيرونو**" قد خرجت ثانية. فقال "**بوارو**" بهدوء:

– لا أظن ذلك، فهل لك أن تعطيها اسمي "**هركيول بوارو**" وتخبرها بأنه من الضروري جداً أن أراها في الحال إذ إني ذاهب إلى إدارة الأمن؟

وغاب رسولنا ثم هبطت السيدة السلم وسرنا معها إلى قاعة الاستقبال، وعند ذلك استدارت إلينا وأماطت نقابها فكدت أصعق دهشة إذ رأيت أمامنا عدوتنا القديمة الكونتسة "**روساكوف**"، وهي "**كونتسة**" روسية سبق أن أشرفت على سرقة بعض المجوهرات في "**لندن**" بطريقة بارعة. وقالت شاكية:

– لم أكد أراكما في الردهة حتى أيقنت بأسوإ العواقب.

– يا عزيزتي الكونتسة "**روساكوف**"... فهزت رأسها قائلة:

– إنني الآن "**إينيز فيرونو**"، إسبانية متزوجة برجل فرنسي فما الذي تريد مني يا سيد "**بوارو**"؟ إنك لرجل رهيب هائل فقد ألجأتني إلى الرحيل عن "**لندن**"، أكبر ظني أنك ستطلع السيدة "**أوليفييه**" على حقيقتي وتضطرني إلى الرحيل عن "**باريس**"! لعلك تعرف أنه لابد لنا من العيش نحن الروس المساكين. فقال "**بوارو**" وهو يلاحظها:

– بل الأمر أجلُّ من ذلك يا سيدتي، إني معتزم دخول الفيلا المجاورة وإنقاذ السيد "**هاليداي**"... إذا كان لا يزال حيًّا، وهاأنتذي ترين أني أعرف كل شيء. ورأيت الاصفرار يكسو وجهها وهي تعض على شفتها، ثم قالت في ثباتها المألوف:

– إنه حي... ولكنه ليس في الفيلا، سأعقد معك صفقة يا سيدي... حريتي... مقابل تسليم السيد "**هاليداي**" سليما معافى إليك. فقال "**بوارو**":

– قبلت وقد كنت على وشك اقتراح هذه الصفقة بنفسي، وبهذه المناسبة هل أنت في خدمة "الأربعة العظام" يا سيدتي؟ ورأيت الاصفرار يصبغ وجهها من جديد ولكنها لم تجب بل سألته:

– أتسمح لي باستخدام التليفون؟ واجتازت القاعة حيث طلبت رقما معينا ثم تابعت قائلة:

– إنه رقم الفيلا المسجون بها صديقنا الآن، وفي وسعك أن تعطيه لرجال البوليس فسيكون الوكر خاليا عندما يقبلون. آه! هذا أنت يا "**أندريه**"؟ أنا "**إينيز**"، إن البلجيكي الصغير يعرف كل شيء. أرسلوا "**هاليداي**" إلى الفندق وارحلوا في الحال. وأعادت السماعة إلى مكانها وسارت إلينا مبتسمة... وقال "**بوارو**":

– ستصحبيننا إلى الفندق يا سيدتي.

– بالتأكيد، لقد كنت أتوقع ذلك. فلما وصلنا إلى الفندق قيل لنا إن ممرضة جاءت برجل يبدو عليه السقم والمرض ثم انصرفت، وإنه ينتظرنا في غرفتنا. وصعدنا إلى الغرفة مسرعين فرأينا شابا بادي الضعف والإعياء... وسأله "**بوارو**":

– هل أنت "**جون هاليداي**"؟ فأومأ الرجل بالإيجاب، وقدمنا إليه كأسا من الشراب أنعشته وردت إليه بعض قوته فانطلق يقول:

– يا إلهي! لقد كنت في الجحيم! زوجتي... أين هي؟ ماذا تظن بي؟ لقد أخبرني أولئك الشياطين بأنها تعتقد... تعتقد... قال "**بوارو**":

– إنها لا تظن بك سوءا قط ولم تهن ثقتها بك... وهي الآن في انتظارك... هي وطفلتك.

– حمدا لله! إني لا أكاد أعتقد أني غدوت حرًّا.

– والآن وقد تمالكت شيئًا من قواك يا سيدي فإني أحب أن أسمع قصتك من أولها. فراح "**هاليداي**" يرمقه في ذعر ثم قال:

– لا أتذكر شيئا.

– ماذا؟

– هل سمعت بـ"الأربعة العظام"؟ أجاب "**بوارو**" بجفاء:

– سمعت عنهم قليلا.

– لست تعرف ما أعرف، إن لهم قوة لا حد لها، وأنا آمن ما لزمت الصمت، أما إذا نطقت بكلمة واحدة فستحل بي وبأعز الناس عليَّ أمور رهيبة... لا تجادلني... إني أعرف ما هناك. لا أتذكر شيئا. ونهض "**هاليداي**" وغادر الغرفة. وعلت محيا "**بوارو**" سمات الغيظ والحنق وهو يغمغم:

– إن "الأربعة العظام" يفوزون مرة أخرى... ما الذي بيدك يا "**هاستنجز**"؟ وناولته ما طلب قائلا:

– لقد خطتها "**الكونتسة**" قبل انصرافها. وقرأ "**بوارو**" الرقعة:

– إلى الملتقى "ا. **ف**" وقال:

– إنها موقعة بالحرفين الأولين من اسمها "ا . **ف**" وقد يكون الأمر مجرد مصادفة، لكن هذين الحرفين بالإفرنجية يعنيان أيضا رقم أربعة!

– 7 –

أمضى "**هاليداي**" ليلته بالغرفة المجاورة لغرفتنا في الفندق، وعبثا حاولنا أن نقف منه على شيء من المعلومات في الصباح إذ كان لا يزيد على القول إنه على علم بالقوة الهائلة التي تحت تصرف "الأربعة العظام"، وإنه إذا نطق بكلمة نزل به أشنع الانتقام، ولم يلبث أن رحل إلى "**إنجلترا**"، وتخلفنا نحن في "**باريس**". وكان الرأي عندي أن نبادر إلى العمل السريع، فراعني أن آنس من "**بوارو**" السكون والجمود، وقلت:

– ناشدتك الله يا "**بوارو**" أن تدعنا نهب للعمل والالتقاء بهم؟

– عجيب يا صديقي... عجيب! عمل ماذا؟ والالتقاء بمن؟ أتوسل إليك أن يكون كلامك واضحا.

– الالتقاء بـ"الأربعة العظام" بالتأكيد.

– هذا غني عن الإيضاح، لكن كيف تشرع في ذلك؟ قلت في شيء من التردد:

– فلنلجأ إلى رجال البوليس. فابتسم "بوارو" قائلا:

– سوف يتهموننا بالتخريف والهذيان، ليس أمامنا ما نتخذه أساسا للعمل، ولا مندوحة لنا من التربص والانتظار.

– ننتظر ماذا؟

– ننتظر حتى يقوم أعداؤنا بحركة. إن دورنا هو أن نترك الجانب الآخر يشن الهجوم.

– وهل تظن أنهم يفعلون ذلك؟

– ليس عندي أدنى ريب، فقد حاولوا إبعادي عن "إنجلترا" وفشلوا، ثم تدخلنا في حادث "دارتمور" وأنقذنا ضحيتهم من المشنقة، وبالأمس تدخلنا كذلك في خططهم ومشروعاتهم، وهيهات أن يتركوا الأمر يقف عند هذا الحد. وبينما أنا أفكر فيما قال سمعنا طرقا على باب الغرفة ودخل رجل وأغلق الباب خلفه دون أن ينتظر الإذن بالدخول، وكان نحيف البنية، طويل القامة، شاحب اللون، يلبس معطفا مزررا حتى عنقه، وقبعة رخوة مرخاة على جبينه، وقال بصوت ناعم:

– معذرة أيها السيدان في دخولي على هذا النحو، إن مهمتي غير عادية في حقيقتها. وسار إلى المنضدة وجلس أمامها، فهممت بالوثوب من مكاني، لكن "بوارو" أومأ إليّ بالسكون وقال للرجل:

– إن دخولك غريب حقًّا يا سيدي، فهل تتفضل بإيضاح مهمتك؟

– إنها سهلة جدًّا يا عزيزي السيد "بوارو"، لقد سببت كثيرا من المضايقة لأصدقائي.

– بأي طريقة؟

– إنك غير جاد في هذا السؤال يا سيد "بوارو"؟ وإنك لتعرف من الأمر ما أعرف.

– إن ذلك يتوقف على معرفة من هم أصدقاؤك.

ودون أن ينبس الرجل بحرف أخرج من جيبه علبة سجائر أخذ منها أربع سجائر

ألقاها على المنضدة، ثم تناولها وأعادها إلى العلبة ووضعها في جيبه. فقال "**بوارو**" :

– آه! وما الذي يقترحه أصدقاؤك؟

– هم يقترحون يا سيدي أن تستخدم مواهبك العظيمة في مكافحة الجريمة العادية. وأن تعود إلى أعمالك القديمة وتعني بحل مشاكل سيدات مجتمعات "**لندن**".

– إنه برنامج يكفل الدعة والهدوء، لكن هب أنني لم أقبل؟ فأتى الرجل بإشارة بليغة المعنى وقال:

– سنأسف لذلك أشد الأسف بالتأكيد كما سيأسف له جميع أصدقاء "**بوارو**" العظيم ومحبيه، لكن الأسف مهما كان عميقا لا يرد الميت إلى الحياة. وأومأ "**بوارو**" وهو يقول:

– إنك لدقيق في التعبير... وهب أنني قبلت؟

– إنه مفوض إليّ في هذه الحالة أن أقدم إليك تعويضا. وأخرج من جيبه حافظة نقود أخذ منها عشر ورقات مالية كل منها بعشرة آلاف فرنك وألقى بها على المنضدة وهو يقول:

– هذه ضمان لحسن نيتنا، وسندفع إليك عشرة أضعافها. وغلى الدم في عروقي من وقاحة الرجل وجرأته وهممت بالوثوب عليه، لكن "**بوارو**" أشار إليّ إشارة أمر بالبقاء في مكاني وقال:

– اجلس يا "**هاستنجز**" واكبت طبيعتك الجميلة الشريفة. أما أنا يا سيدي فإني أقول لك هذا: ما الذي يحول بيني وبين الاتصال تليفونيًا برجال البوليس لتسليمك إليهم بينما يحول صديقي هذا دون فرارك؟ فقال زائرنا بهدوء:

– افعل ذلك إذا كنت تراه من الصواب. وصحت غاضبا:

– إني لا أطيق هذا يا "**بوارو**"... استدع رجال البوليس ولننته من أمره!

وأسرعت إلى الباب فجعلته وراء ظهري، وما كاد "**بوارو**" يرفع السماعة حتى وثب الرجل في خفة الفهد، ولكني كنت متأهبا له فلم تمض دقيقة واحدة حتى

التحمنا في صراع عنيف، ثم شعرت به يضعف ويتخاذل ويتهافت على الأرض أمامي، لكن أمرا عجيبا وقع في غمرة الفوز والانتصار، فقد شعرت بنفسي أندفع إلى الأمام طائرا في الهواء، ثم اصطدم رأسي بالحائط وسقطت على الأرض، وسرعان ما نهضت من سقطتي، لكن الباب كان يغلق خلف خصمنا وأسرعت إليه أريد فتحه فألفيته مقفلا من الخارج، وانتزعت سماعة التليفون من يد "**بوارو**" واتصلت بإدارة الفندق طالبا اعتقال الرجل بعد أن أدليت إليهم بأوصافه، وبعد بضع دقائق سمعنا ضجة في الممشى خارج الغرفة، وفتح الباب ودخل مدير الفندق وموظفوه قائلين إنهم لم يعثروا على أحد تنطبق عليه الأوصاف التي ذكرتها لهم، وسألهم "**بوارو**" بصوته الوديع:

– لعلكم لقيتم أحدا من مستخدمي الفندق؟

– لم نلق سوى خادم يحمل صحفة يا سيدي. فقال "**بوارو**" بعد انصرافهم:

– هذا هو السبب إذن في أنه كان يزرر معطفه حتى ذقنه. وغمغمت في أسى واضح:

– إني آسف جدًّا يا "**بوارو**"، فقد ظننت أنني تغلبت عليه واستنزفت قواه.

– إنها حيلة يابانية فيما أظن يا صديقي فلا تحزن، لقد جرى كل شيء طبقا للخطة، خطته، وهذا هو ما كنت أبغي. وهتفت وأنا أقفز إلى شيء رمادي ملقى على الأرض:

– ما هذا؟ وكان الذي وجدته محفظة خفيفة من الجلد الأسمر سقطت من جيب خصمي في أثناء صراعنا دون ريب، وكان بها كمبيالتان مؤشرا عليهما بالسداد باسم "**فيلكس لاون**"، ورقعة مطوية من الورق خفق لها قلبي خفقانا شديدا، فقد خطت عليها كلمات على أعظم قدر من الأهمية والخطورة: "الاجتماع التالي للمجلس يعقد يوم الجمعة في رقم 34 بشارع "**ديزيشيل**" في الساعة الحادية عشرة صباحا" وكان التوقيع رقم 4 بخط كبير واضح.

وإن اليوم لهو يوم الجمعة، وها هي ساعة الموقد تشير إلى أن الساعة هي العاشرة والنصف وهتفت جذلا:

– لله ما أعظم هذه الفرصة! إن الأقدار تجري وفق مصلحتنا ويجب أن نقوم في الحال. بيد أن "**بوارو**" غمغم قائلا:

– هذا هو سبب مجيئه إلينا إذن إني لأرى الآن كل شيء.

– ترى ماذا؟ هيا بنا يا "**بوارو**" ولا تقبع هناك مستسلما للأحلام. فنظر إليَّ ثم هز رأسه وهو يبتسم قائلا:

– الا تذكر القصة التي تتغنى بها المرضعات لأطفالكم، قصة العنكبوت الذي تتدرج الذبابة إلى شركه؟ كلا... كلا. إنهم دهاة ماكرون، ولكنهم لا يماثلون "**هركيول بوارو**" دهاء ومكرا.

– ما الذي تعنيه بربك يا "**بوارو**"؟

– لقد كنت أسائل نفسي يا صديقي عن سر هذه الزيارة، أكان زائري يطمع حقيقة في رشوتي؟ أم في إرهابي وحملي على التخلي عن واجبي إذا أخفق في الرشوة؟ كان عسيرا أن أصدق أحد الأمرين، فلماذا جاء إذن؟ وهأنذا أرى الآن الخطة كلها، وهي دقيقة بارعة محكمة: التظاهر بمحاولة رشوتي أو إرهابي... ثم الشجار الذي كان نتيجة محتومة لعرضه المهين والذي لم يحاول تجنبه والذي كان مقررا أن يتسبب في سقوط المحفظة من جيبه فيبدو ذلك أمرا طبيعيًّا معقولا، وأخيرا الشرك! شارع "**ديزيشيل**" في الساعة الحادية عشرة؟ خاب فالهم! إن "**هركيول بوارو**" لا يقتنص بهذه السهولة، لكن ثمة أمرا واحدا لا أفهمه.

– وما هو؟

– الموعد يا "**هاستنجز**"... الموعد، إذا كانوا يريدون استدراجي أفليس الليل أوفق لهم؟ لماذا هذه الساعة المبكرة؟ أيمكن أن يكون ثمة أمر يوشك أن يحدث هذا الصباح ولا يريدون أن يعلم به "**هركيول بوارو**"؟ ثم هز رأسه مستطردا:

– سوف نرى، ولن نبرح مكاننا هذا الصباح يا صديقي سنرقب الحوادث هنا.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تماما تلقينا دعوة من السيدة "**أوليفييه**" التي زرناها بالأمس بصدد اختفاء "**هاليداي**" تطلب إلينا موافاتها في بيتها بضاحية

"**باسي**" في الحال فلبينا الدعوة دون أن نضيع لحظة واحدة. واستقبلتنا السيدة "**أوليفييه**" بالصالون الصغير نفسه الذي اجتمعنا بها فيه بالأمس، فراعني من جديد ما يتجلى في وجهها المستطيل، الذي يشبه وجوه الراهبات وعينيها المشتعلتين بآيات القوة والعزم، وقالت دون أي تمهيد :

– لقد زرتماني بالأمس أيها السيدان بصدد اختفاء السيد "**هاليداي**"، وعلمت الآن أنكما عدتما إلى البيت بعد انصرافكما وطلبتما مقابلة سكرتيرتي "**إينيز فيرونو**"، وقد خرجت معكما ولم تعد بعد ذلك.

– أهذا كل شيء يا سيدتي؟

– كلا يا سيدي، لقد حدث سطو على المعمل في الليلة الماضية وسرقت منه أوراق مذكرات مهمة، وحاول اللصوص الحصول على شيء أثمن من تلك الأوراق والمذكرات، ولكنهم أخفقوا في فتح الخزانة الكبيرة لحسن الحظ.

– إن سكرتيرتك السابقة يا سيدتي هي في الحقيقة الكونتسة "**روساكوف**" من مهرة اللصوص، وهي المسؤولة عن اختفاء السيد "**هاليداي**"، فكم مضى عليها في خدمتك؟

– خمسة أشهر يا سيدي، وإن ما تقول ليدهشني أشد الدهشة.

– ولكنه مع ذلك حق لا ريب فيه، والآن هل كانت تلك الأوراق من السهل الوصول إليها؟ أم كان هذا يقتضي إلماما بدخائل المعمل؟

– إن معرفة اللصوص بمكانها تدعو إلى شيء من العجب، فهل تعتقد أن "**إينيز**"...

– ليس لديَّ شك في أنها أمدتهم بالمعلومات، لكن ما هذه الأشياء الثمينة التي أخفق اللصوص في الوصول إليها؟ مجوهرات؟

– بل شيء أثمن من ذلك يا سيدي، راديوم.

– راديوم؟

– أجل يا سيدي، إني الآن في أشد مراحل أبحاثي تعقيداً وإني أملك مقدارا

صغيرا من الراديوم، لكن بعض الهيئات أعارتني كمية أخرى منه لإتمام مهمتي، وهذه الكمية هي معظم ما يملكه العالم من هذا المعدن النادر، وتبلغ قيمتها ملايين الفرنكات، وهي مخبوءة في صندوق من الرصاص بالخزانة الكبيرة التي يبدو منظرها عاديًّا بسيطا عن قصد وتعمُّد، لكن فتح أقفالها من أصعب الأمور.

– وما المدة التي سيظل هذا الراديوم إبانها في حوزتك يا سيدتي؟

– يبقى عندي يومين آخرين يا سيدي ثم أختم أبحاثي. فالتمعت عينا "**بوارو**" وقال:

– وهل "**إينيز فيرونو**" سكرتيرتك السابقة على علم بذلك؟

– نعم.

– حسنا... سيعود أصدقاؤنا إذن، لا تتحدثي عني بكلمة واحدة يا سيدتي، كوني على ثقة بانني سأنقذ كنزك الثمين، هل عندك مفتاح للباب المفضي إلى الحديقة؟

– نعم يا سيدي، وها هو ذا وعندي نسخة أخرى منه، وها هو كذلك مفتاح باب الحديقة الذي يفتح على الممشى الفاصل بين بيتي والبيت المجاور.

– أشكرك يا سيدتي، نامي الليلة مطمئنة ناعمة البال واتركي لي كل شيء، لكن لا تنطقي بكلمة واحدة... ولا إلى مساعديك. إنهما يدعيان الآنسة "**كلود**" والسيد "**هنري**"؟ لا تقولي لهما كلمة واحدة بصفة خاصة. وغادر "**بوارو**" الفيلا وهو يفرك كفيه راضيا مغتبطا، فسألته:

– ما الذي تنتوي عمله الآن؟

– نغادر الآن "**باريس**" إلى "**إنجلترا**" يا عزيزي "**هاستنجز**".

– ماذا؟

– سنحزم أمتعتنا ونتناول غداءنا ثم نستقل سيارة إلى محطة الشمال.

– لكن الراديوم؟

– لقد قلت يا عزيزي "**هاستنجز**" إننا راحلان إلى "**إنجلترا**"، ولكني لم أقل إننا سنصل إليها، فكر في الأمر يا صديقي، إننا تحت مراقبة دقيقة صارمة لا تغفل عنا

لحظة ولا تغيب عنها حركة من حركاتنا، ويجب أن ندخل في روع أعدائنا أننا عائدان إلى "**إنجلترا**"، ولن يصدقوا هذا إلا إذا رأونا نستقل القطار ويسير بنا.

– أتعني أن ننسل من القطار ثانية في آخر لحظة؟

– كلا يا "**هاستنجز**"، فلن يقتنع أعداؤنا بأقل من رحيلنا فعلا.

– لكن القطار لا يقف قبل "**كاليه**"؟

– سيقف إذا دفعنا ثمن وقوفه، ألم تلاحظ يا صديقي المقبض الذي تعطى بواسطته إشارة الوقوف في حالات الطوارئ؟ إن جزاء من يديره خطأ مائة فرنك فيما أظن؟

– أو تعتزم إدارة هذا المقبض لإيقاف القطار؟

– بل سيتولى ذلك صديق لي يدعى "**بييركومبو**"، وبينما يكون في جدل محتدم مع كومسارية القطار محدثا ضجة عالية تشغل الركاب جميعا، ننسل نحن دون أن يفطن إلينا أحد.

وجرت الأمور وفقا لخطة "**بوارو**" تماما، فأوقف القطار عندما بلغ مشارف "**باريس**" وأثار "**بييركومبو**" ضجة عالية من الطراز الفرنسي الأول! فانسللت أنا و"**بوارو**" من القطار ولم يشعر بنا أحد وكان يجب بعد ذلك أن نغير هيئتنا، وكان "**بوارو**" قد استعد لذلك فجاء معه بجميع أدوات التنكر، ولم يمض غير قليل حتى تحولنا إلى متشردين من ذوي الثياب الزرية القذرة، عائدين إلى "**باريس**".

وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة عندما وصلنا إلى فيلا السيدة "**أوليفييه**"، فرحنا نتطلع يمنة ويسرة متفحصين الطريق قبل أن ننسل إلى الممشى الصغير، وقد بدا المكان كله ساكنا موحشا كأنه مقفر من الأحياء، وكنا على تمام اليقين من أنه لا يقتفي أثرنا أحد. وهمس "**بوارو**" في أذني:

– لا أتوقع أن يكون اللصوص هنا الآن، وقد لا يأتون إلا في الليلة المقبلة، ولكنهم يعلمون تمام العلم أن الراديوم لن يكون هناك سوى ليلتين.

وأدرنا المفتاح في باب الحديقة بحذر شديد فانفتح دون أن يحدث صوتا، ودلفنا

إلى الحديقة. وعند ذلك حلت الضربة فجأة في سرعة البرق الخاطف فحوصرنا وكممنا وشد وثاقنا، ولم يكن في انتظارنا أقل من عشرة رجال، فلم تكن المقاومة لتجدينا شيئا. وكدت أصعق دهشة إذ حملونا إلى بيت السيدة "أوليفييه" نفسه دون أي مكان آخر ودخلوا بنا إلى المعمل، وانحنى أحد الرجال أمام الخزانة الكبيرة، فدار بابها وانفتح، وشعرت برعدة عنيفة تتمشى في مفاصلي خوفا من أن يحشرونا فيها ويتركونا نموت اختناقا. وشد ما ازددت دهشة وعجبا عندما أبصرت بداخلها سلما يهبط تحت الأرض، ونزل بنا الرجال وساروا في ممر ضيق انتهى إلى قاعة فسيحة، وكانت تقف بها امرأة طويلة القامة مهيبة الهيئة، وهي ترخي على وجهها قناعا من المخمل الأسود وكانت إشارتها الآمرة تنبئ بأنها سيدة الموقف المطاعة، وألقى بنا الرجال على الأرض وتركونا وحدنا مع تلك المرأة المقنعة التي لم يعد لديَّ أدنى شك في حقيقتها، إنها بلا ريب الفرنسية المجهولة... رقم 3 من "الأربعة العظام".

وجثت بجانبنا ورفعت الكمامتين، ولكنها تركتنا موثقين، ثم نهضت ووقفت أمامنا، بحركة سريعة من يدها أماطت اللثام عن وجهها. لم تكن سوى السيدة "أوليفييه"! قالت بصوت منخفض ساخر:

– السيد "بوارو"! السيد "بوارو" العظيم العجيب الذي لا كفء له ولا نظير لقد أرسلت إليك صباح الأمس تحذيرا، ولكنك طويت دونه كشحا، وظننت أن بوسعك التصدي لنا ومناصبتنا العداء. وهأنتذا الآن هنا.

وكان يتجلى في حركاتها وصوتها من الحقد والبغضاء ما هالني وأفعم نفسي رهبة وجزعا، إنها مجنونة... جنون العبقرية والذكاء! ولم يحر "بوارو" جوابا، بل راح يشخص ببصره إليها وقد ارتسمت على وجهه سمات الخيبة والقنوط، وقالت:

– وهذه هي النهاية على كل حال، فما يسعنا أن نسمح لأحد بالتدخل في خططنا، فهل لك من مطلب قبل أن تغادر الحياة؟

ولا أنكر أنني لم أشعر قط بأني أدنى إلى الأبدية مما كنت في تلك اللحظة، أما

"بوارو" فكان رائعا في موقفه إذ لم تنبض له فريصة ولم يحل لونه، بل مضى يلاحظها في جد واهتمام. وقال بهدوء:

– إنه ليحزنني حقًّا ألا يتسع لي الوقت لدراستك من الناحية السيكولوجية يا سيدتي. أجل... إن لي رجاء... إن كل محكوم عليه بالإعدام يسمح له بتدخين آخر سيجارة في حياته فيما أظن، ومعي علبة سجائري، فإذا أذنت. ونظر إلى الأصفاد التي تغل يديه... فضحكت المرأة قائلة:

– نعم! أتحب أن أحل يديك؟ إني لأعلم أنك ذكي أريب يا سيد "هركيول بوارو". لن أحل يديك ولكنني سأعطيك سيجارة. وجثت بجانبه فأخرجت علبة سجائره وأخذت منها سيجارة وضعتها بين شفتيه ثم نهضت وهي تقول:

– سآتيك الآن بعود ثقاب.

– هذا غير ضروري يا سيدتي. وكان في صوته ما راعني وأذهلها، واستطرد "بوارو" قائلا:

– أرجو ألا تأتي بحركة يا سيدتي وإلا ندمت، هل تعرفين شيئا من خواص الكيوار؟ إن هنود "أمريكا الجنوبية" يستعملونه في تسميم سهامهم، إذ إن أقل خدش به يعقبه الموت، وبعض القبائل تستعمله في قصبة صغيرة ينفخونه بواسطتها، وعندي كذلك قصبة صغيرة يخالها الناظر سيجارة، وليس عليَّ إلا أن أنفخ فيها. آه إنك تنتفضين، لا تتحركي يا سيدتي، فإن نفخة واحدة في هذه القصبة ترسل منها سهما دقيقا جدًّا كشوكة السمك لا تخطئ هدفها، وأنت لا تريدين أن تموتي يا سيدتي، فأرجو أن تحلي قيود صديقي "هاستنجز"، إنني مقيد اليدين، لكن بوسعي تحريك رأسي، فأنت في مرمى هذا السهم القاتل أينما اتجهت يا سيدتي، وإني لأرجو مخلصا ألا تركبي متن الشطط وتقترفي خطأ يودي بك.

وصدعت المرأة بأمره وهي تتلظى غضبا وغيظا، فغدوت حرًّا طليقا، ثم طلب إليَّ "بوارو" أن أشد وثاقها بالحبال التي تخلصت منها، وبعد ذلك حللت وثاقه، فانحنى عليها قائلا:

- إن "**هركيول بوارو**" لا يقضى عليه بهذه السهولة يا سيدتي، طاب مساؤك.
وكان من حسن الحظ أنها كانت قد صرفت أتباعها فلم تصادفنا أية عقبة في مغادرة البيت... وسرعان ما اجتزنا الحديقة وابتعدنا عن تلك الناحية، وعند ذلك انطلق "**بوارو**" يقول:

- إنني حقًّا لحيوان تعس وأحمق مغفل... فقد كنت أباهي بعدم الوقوع في شركهم، مع أنهم لم يقصدوا به أن يكون شركا إلا في الطريقة التي وقعت بها في أحبولتهم... كانوا يعلمون أنني سأتبين الحقيقة الخفية، وبنوا خطتهم على ذلك. وهذا يفسر السهولة التي سلموا بها "**هاليداي**"... كما يفسر كل شيء آخر.. وقد كانت السيدة "**أوليفييه**" الروح المحرك... اما "**فيرا روساكوف**" فلم تكن سوى مساعدة لها... وكانت السيدة "**أوليفييه**" تريد الوقوف على آراء "**هاليداي**"، ولها من عبقريتها ما يكفل إتمام النقص وسد الثغرة. نعم يا "**هاستنجز**". إننا نعرف الآن رقم 3... المرأة التي قد تكون أعظم علماء العالم... تصور هذا... دهاء الشرق، وعلم الغرب، وشخصيتان أخريان لا نزال نجهلهما، لكن يجب أن نبحث، وسنعود غدا إلى "**لندن**" وننظر في ذلك.

- 8 -

ألفينا عند عودتنا إلى "**لندن**" عدة رسائل باسم "**بوارو**"... وقرأ إحداها وهو يبتسم ابتسامة عجيبة، ثم ناولني إياها لأقرأها، فنظرت أولا إلى توقيعها ورأيت انه "**أيب رايلاند**" فتذكرت قول "**بوارو**" إنه أغنى رجل في العالم، وكانت رسالة السيد "**رايلاند**" حازمة شديدة اللهجة أعرب فيها عن عدم اقتناعه بالأسباب التي أبداها "**بوارو**" للانسحاب من مهمة "**أمريكا الجنوبية**" في آخر لحظة... وقال "**بوارو**":

- ألا يبعث هذا على مزيد التمعن والتفكير؟ أجبت:

- ليس غريبا أن يغضب الرجل بعض الغضب من انسحابك...

- كلا... كلا... أنت لا تفهم، اذكر كلمات "**مايرلنج**"، الرجل الذي لجأ إلينا فلقى مصرعه بيد أعدائه، لقد قال إن رقم 2 يرمز إليه بحرف "س" بالإنجليزية يقطعه خطان صغيران، وهي علامة الدولار، وبخطين ونجمة. ومن ذلك يستنتج أنه أمريكي وأنه يمثل قوة المال، فإذا أضفت إلى ذلك أن "**رايلاند**" عرض مبلغا ضخما لإغرائي بالرحيل عن "**إنجلترا**" فماذا يكون رأيك؟ قلت وأنا أحملق إليه مشدوها:

- أتعني أنك تشتبه في أن "**أيب رايلاند**" صاحب الملايين هو رقم 2 من "الأربعة العظام"؟

- ما أسرع ما فهمت مرادي بذكائك الوقاد. أجل... إني أظن أنه كذلك... إن السيد "**رايلاند**" هذا سيئ السمعة في الأوساط المالية... فهو رجل عظيم المقدرة، لا ضمير له ولا مبدأ، وتحت يده كل ما يريد من المال، وهو يسعى إلى سلطان لا حد له... على أني لست واثقا بصحة رأيي كل الثقة، ولو أتيح لي أن أكون على يقين من أن "**أيب رايلاند**" هو رقم 2 بصفة قاطعة لأصبحنا من هدفنا قاب قوسين أو ادنى. ولاحظت من الرسالة أن المليونير الأمريكي قد هبط "**لندن**" حديثا فاقترحت على "**بوارو**" أن يزوره ويقدم إليه اعتذاره بنفسه... وبعد يومين عاد "**بوارو**" إلى البيت وهو في أشد حالات الانفعال وقبض على كلتا يدي قائلا:

- لقد سنحت لنا فرصة عظيمة يا صديقي... فرصة لن يجود الدهر بمثلها... ولكنها قد تنطوي على خطر عظيم لن أسألك التعرض له... وأخيرا سكن انفعال "**بوارو**" قليلا وأطلعني على خطته... فقد كان "**رايلاند**" يطلب سكرتيرا على علم بآداب المجتمعات الراقية وتقاليدها، وكان من رأي "**بوارو**" أن أتقدم للحصول على هذه الوظيفة... قال:

- إني لأود القيام بذلك بنفسي لولا استحالة تنكري في الهيئة المناسبة لهذه الوظيفة يا صديقي... إنني لا أتكلم الإنجليزية بطلاقة إلا عندما أكون منفعلا، لكن لهجتي مع ذلك لا تخدع الأذن... ثم إني لو ضحيت حتى بشاربي لكان من السهل مع ذلك معرفة "**هركيول بوارو**"... وأعربت له عن استعدادي للاضطلاع

بهذه المهمة وإن كنت على ثقة بأن "**رايلاند**" لن يقبلني... فقال "**بوارو**" :

– بل يقبلك بلا ريب... فساعد لك من الشهادات ما يجعله يشتاق إلى استخدامك، وسيزكيك وزير الداخلية شخصيًّا. ولما صارحته بأن في عبارته الأخيرة مبالغة غير معقولة قال:

– أجل... سيزكيك... لقد أسديت إليه خدمة لا ينساها، وهو لا يتردد في إجابة أي طلب لي، بل هو أطوع لي من بناني، وكان أول ما فعلناه أن استقدمنا إخصائيًّا في فن المكياج لتغيير هيئتي، فلم ينقض نصف ساعة حتى كنت رجلا آخر وقال "**بوارو**" :

– إن اسمك هو "**آرثر نيفيل**"... لاحظتك العناية يا صديقي فشد ما أشفق أن تتعرض لأعظم الأخطار.

وتقدمت إلى فندق "**سافوي**" في ساعة حددها السيد "**رايلاند**" وقلبي يخفق خفقانا شديدا، وطلبت مقابلة الرجل العظيم... وبعد دقيقتين صعدوا بي إلى الجناح المخصص له... وكان "**رايلاند**" جالسا إلى منضدة وأمامه رسالة منشورة لحظتها بطرف عيني فرأيتها بخط وزير الداخلية... وكانت هذه أول مرة أرى فيها المليونير الأمريكي، فأثر منظره في نفسي رغمًا عني... وكان طويلا مخيفا، له ذقن بارز، وأنف معقوف قليلا، وعينان رماديتان تلتمعان التماع الصلب البارد تحت حاجبين كثيفين... وله شعر غزير مشعث، وفي جانب فمه سيجار أسود ضخم علمت فيما بعد أنه لا يرى دونه. وقال في صوت خشن:

– اجلس... وجلست، فنقر بإصبعه على الرسالة المبسوطة أمامه مستطردا:

– إنك البضاعة المطلوبة طبقا لهذه الرسالة ولا حاجة بي إلى المزيد من البحث... هل أنت متمكن من الشؤون الاجتماعية؟ فأجبت بأني أعتقد أن بوسعي إرضاءه من هذه الناحية، فقال:

– إن ما أعنيه هو أنه إذا حضر إلى البيت الذي اتخذته في الريف كثير من الدوقات واللوردات والفيكونتات ومن إليهم، فهل تستطيع أن ترتب أماكنهم حول

المائدة طبقا للتقاليد؟ فقلت مبتسما:

- بكل سهولة. وبعد أن تفاهمنا في المسائل الأولية ألحقني بخدمته، وكان السيد "**رايلاند**" يحتاج إلى سكرتير محيط بآداب المجتمع الإنجليزي وتقاليده، إذ كان له سكرتير أمريكي وكاتبة اختزال وبعد ذلك بيومين ذهبت إلى "**هاتون تشيز**"، وهو قصر ريفي استأجره المليونير الأمريكي من الدوق "**أوف لومشير**" لمدة ستة أشهر...

ولم ألق في عملي صعوبة ولا عناء؛ إذ سبق لي أن عملت سكرتيرا لأحد أعضاء البرلمان، فلم يكن هذا النوع من العمل غريبا عليَّ، وكان السيد "**رايلاند**" عادة يدعو عددا كبيرا من الضيوف في عطلة الأسبوع، أما بقية الأيام فكانت تمضي في دعة وهدوء... وقليلا ما كنت أرى السيد "**أبلباي**" السكرتير الأمريكي، ولكنه كان يبدو لي شابًا أمريكيًا عاديًا لين الجانب دمث الأخلاق متمكنا من عمله، أما الآنسة "**مارتن**" كاتبة الاختزال فكنت أراها كثيرا... وكانت فتاة حسناء تناهز الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، ذات شعر ناعم وعينين سمراوين مطرقتين دائما، وإن كانتا تستطيعان أحيانا العبث بالألباب، ولاح لي أنها تبغض مخدومها وتستريب به، وإن كانت لم تصرح لي بشيء من ذلك حتى بعد أن ألفيت نفسي بعد حين مستودع سرها وموضع ثقتها...

وكنت قد تفحصت حاشية البيت كلها وتتبعت أحوالها... وكان بعض الخدم قد التحقوا حديثا بخدمة المليونير الأمريكي... أما الساقي ومدبرة المنزل والطباخ فكانوا في خدمة "**الدوق**" الإنجليزي من قبل وارتضوا البقاء في القصر بعد تأجيره إلى "**رايلاند**"... وقد تفحصت الخادم "**جيمس**" بنوع خاص، ولكني تبينت أنه خادم عادي، وأنه التحق بخدمة "**رايلاند**" بواسطة الساقي... أما الشخص الذي أثار شكوكي أكثر من سواه فهو "**ديفز**" تابع "**رايلاند**" الخاص، وقد أحضره معه من "**نيويورك**"... ومع أنه كان إنجليزي المولد لا غبار على سلوكه، فقد ظل موضع شكي وريبي...

وانقضى عليَّ في قصر "**هاتون تشيز**" ثلاثة أسابيع دون أن يقع ما يؤيد رأينا؛ إذ لم يكن ثمة أي أثر لنشاط "الأربعة العظام"، وكان السيد "**رايلاند**" رجلاً ذا قوة وشخصية طاغيتين، ولكنني أخذت أشك في صدق نظر "**بوارو**" عندما اعتقد أن للرجل صلة بتلك الهيئة الرهيبة. بل لقد سمعته يذكر "**بوارو**" ذات مساء وهو جالس إلى المائدة مع مدعويه فيقول: "يقولون إنه رجل صغير عجيب... ولكنه لا يحفظ عهدا ولا يفي بوعد... فلقد عقدت معه صفقة ولكنه نقضها في آخر لحظة".

ثم جاءتني الآنسة "**مارتن**" كاتبة الاختزال بقصة على شيء من الغرابة، وكان السيد "**رايلاند**" قد ذهب إلى "**لندن**" ليقضي بها ذلك اليوم مستصحبا "**أبلباي**" معه... وخرجت مع الآنسة "**مارتن**" إلى الحديقة للتريض بعد تناول الشاي، وكنت أحبها كثيرا لبساطتها وبعدها عن التصنع والادعاء... وتبينت أن ثمة أمرا يعنيها ويشغلها، وسرعان ما باحت بما يجول في خاطرها، قالت:

– لعلك لا تعرف يا "**آرثر نيفيل**" أنني أفكر فعلا في الاستقالة من وظيفتي.

فأبديت شيئا من الدهشة... ومضت في حديثها:

– إني أعلم أنها وظيفة حسنة لا يطمع في مثلها كثير من الناس، ولكني لا أحتمل الامتهان وسوء المعاملة يا "**آرثر نيفيل**"، لا أحتمل أن يوجه إليَّ هذا الرجل أقذع السب والشتم كأنه يخاطب أحد السوقة... إن الرجل المهذب لا يسف إلى هذا الدرك...

– أيشتمك السيد "**رايلاند**"؟ فأومأت برأسها بالإيجاب وقالت:

– إنه ضيق الصدر سريع الانفعال، لكن ثورته واهتياجه دون سبب شيء لا يطاق، لقد لاح لي أنه لا يبعد أن يفتك بي! ولم يكن لثورته من سبب إطلاقًا كما قلت.. قلت وقد ازداد اهتمامي بحديثها:

– هل لك أن تخبريني بتفاصيل ما حدث؟

– إنني أفتح جميع الرسائل التي ترد للسيد "**رايلاند**" كما تعلم... وبعض هذه

الرسائل أسلمه إلى السيد "**أبلباي**"، وبعضها أتولاه بنفسي، ولكني أقوم بالفرز الابتدائي كله... ومن بين ما يحمله إلينا البريد رسائل خاصة تكتب على ورق أزرق، وفي زاوية الظرف رقم 4 بخط دقيق، وهناك تعليمات مشددة بعدم فض هذه الرسائل وتسليمها سليمة إلى السيد "**رايلاند**"، وهي تعليمات أنفذها دائما، لكن البريد كان بالأمس ثقيلا جداً، فمضيت أفض الرسائل في سرعة مذهلة، وفتحت خطأ إحدى تلك الرسائل الزرقاء... وما كدت أفطن إلى خطئي حتى أسرعت بالرسالة إلى السيد "**رايلاند**" معتذرة، فاستشاط غضبا كأنما أصابه مس من الجنون، حتى لقد خشيت منه على نفسي...

– وما الذي بتلك الرسالة حتى يندفع في الغضب على ذلك النحو؟

– لا شيء إطلاقًا، وهو أعجب ما في الموضوع... فلقد قرأتها قبل أن أتبين خطئي، وهي قصيرة موجزة لا أزال أذكرها. وقد كتبتها كما يلي دون أن تعترض:

«سيدي العزيز... إن المهم في رأيي هو ذهابكم للعقار... وإذا امتدت للمحجر الصفقة فإن مبلغ سبعة عشر ألفا معقول، أما 11 في المئة فكثيرة، وأربعة في المئة مناسبة كل المناسبة...»

"أرثر ليفرشام"

واستطردت الآنسة "**مارتن**" تقول:

– إنه لواضح أن الرسالة خاصة بعقار يفكر السيد "**رايلاند**" في شرائه، ولكني أشعر بأن الرجل الذي يستبد به الغضب لمثل هذا السبب التافه خليق بأن يخشى شره... فما رأيك يا "**أرثر نيفيل**"؟ إنك أكثر مني خبرة بالحياة... فرحت أواسيها وأسكن جاشها حتى انصرفت وقد ذهب ما بها من الخوف والإشفاق، لكن لم يذهب ما ساورني من الشك والريب...

وظللت أفكر في هذه الرسالة طوال المساء ومعظم النهار التالي وأنا لا أرى بها ما يريب سوى رقم 4 الذي كان مكتوبا في زاوية غلافها كما أخبرتني الفتاة... ثم تكشف لي الحل فجأة وهو حل سهل أيضا... فرقم 4 هو مفتاح الرسالة، وما

كدت أسقط كل ثلاث كلمات وأقرأ الرابعة حتى خرجت برسالة أخرى تختلف عن الرسالة الأصلية كل الاختلاف:

"المهم ذهابكم للمحجر –17 – 11 – 4"

وكان استجلاء معنى هذه الأرقام سهلا كذلك... فالسبعة عشر تشير إلى السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) وكان اليوم التالي والأحد عشر هي ساعة الموعد، والأربعة هي التوقيع، وهي إما أن تكون رمزا إلى رقم 4 الغامض نفسه، وإما أن تكون الماركة المسجلة لـ"الأربعة العظام"... أما المحجر فواضح كذلك فإن على مسافة ثماني مائة متر من القصر محجرا كبيرا مهجورا، وهو أنسب مكان لعقد الاجتماعات السرية.

وفكرت لحظة في الانفراد بالعمل إذ كان يروقني أن أظهر بمظهر البطولة أمام "بوارو"، ولو مرة واحدة، ولكني لم ألبث أن تغلبت على هذه الرغبة خشية أن أفسد هذه الفرصة السانحة للفوز والنجاح، وهكذا بادرت بالكتابة إليه... وبسطت له الحقائق التي وقفت عليها مستلفتا نظره إلى ضرورة وجودنا هناك لكي نطلع على ما يجري في ذلك الاجتماع... فإذا رأى أن أنفرد بالأمر فعلت، ولكني وصفت له الطريق من المحطة إلى المحجر إذا آثر الحضور بنفسه...

وأخذت الرسالة إلى مكتب بريد القرية وأرسلتها بنفسي، وكنت أستطيع الاتصال بصديقي طوال مدة إقامتي عن طريق البريد، على ألا يرسل هو شيئا حذرا من أن يكون هناك من يعبث برسائلي ويطلع على محتوياتها... وفي المساء التالي كنت شديد الانفعال، ولم يكن عندنا أحد من الضيوف... وظللت طوال المساء مشغولا مع السيد "رايلاند" بغرفة مكتبته... وقد كنت أتوقع مثل ذلك، فلم أعمل على لقاء "بوارو" بالمحطة، على أني كنت شديد الثقة بأن السيد "رايلاند" سيصرفني قبل الساعة الحادية عشرة بزمن طويل... وقد صدق حدسي، فما حانت الساعة العاشرة والنصف حتى أعلن انتهاء عمله... انسحبت بهدوء، وتظاهرت بالصعود إلى الطابق الأعلى للنوم، ولكني انسللت إلى الحديقة من سلم خلفي بعد

أن ارتديت معطفا قاتما يخفي صدر قميصي الأبيض.

وتقدمت في الحديقة قليلا، ثم حانت مني لفتة إلى الوراء فرأيت السيد "**رايلاند**" يهبط إلى الحديقة من شرفة مكتبته... فعلمت أنه ذاهب إلى الموعد، وأسرعت في السير كي أسبقه، فبلغت المحجر لاهث الأنفاس، وبدا لي المكان مقفرا، فانسللت إلى ناحية تكسوها الأعشاب العالية الكثيفة المتشابكة واختبأت فيها في انتظار ما يجد من التطورات... وبعد عشر دقائق، أي في تمام الساعة الحادية عشرة، أقبل "**رايلاند**" متمهلا وقد أسدل قبعته على عينيه، وسيجاره الأبدي في فمه، وبعد أن ألقى على ما يحيط به نظرة سريعة غاص في فراغ المحجر، وسرعان ما تصاعدت إليَّ همهمة أصوات، فأدركت أن الرجل أو الرجال الآخرين قد سبقوا إلى الموعد المضروب... وزحفت من تحت الأغصان الكثيفة في حذر خطوة فخطوة، وأخذت أتسلل في الطريق المنحدر دون أن أحدث صوتا حتى لم يبق بيني وبين الرجال الذين يتحادثون إلا صخرة ضخمة... وفي ستر من ذلك الظلام الدامس مددت عنقي من حافة هذه الصخرة، وإذا بي أرى نفسي أمام فوهة مسدس أسود فتاك... وقال السيد "**رايلاند**":

- ارفع يديك، إنني في انتظارك. وكان جالسا في ظل الصخرة فلم أكن أرى وجهه، لكن رنة التهديد في صوته كانت كريهة بغيضة... ثم شعرت بمس الحديد البارد خلف عنقي... وخفض "**رايلاند**" مسدسه قائلا:

- هذا حسن يا "**جورج**"... أحضره هنا...

وأخذت إلى بقعة مظلمة وأنا أكاد أتميز من الغيظ، وهناك أوثقني "**جورج**" الذي لم أكن أراه وكممني، وأكبر ظني أنه لم يكن سوى التابع الخاص الملعون... وعاد "**رايلاند**" إلى الكلام في صوت رهيب:

- ستكون هذه نهايتكما جميعا، فقد أسرفتما في اعتراض سبيل "الأربعة العظام"، وسيكون مصيركما هائلا يشيب النواصي... لكن صديقك ليس دقيقا في حفظ المواعيد...

طغت على فؤادي موجة من الهول والذعر عندما بدا لي أن "**بوارو**" يوشك أن يقع في الشرك المنصوب له وأنا عاجز عن تحذيره ولم أملك سوى الاتجاه إلى الله بالدعاء أن يكون قد عدل عن الحضور في آخر لحظة مكتفيا بي في هذه المهمة... وكلما مرت دقيقة ازداد بي الأمل والرجاء... لكن هذا الأمل ما لبث أن تحطم فجأة إذ سمعت وقع أقدام مقبلة في حيطة وحذر... وأخذت أتلوى ألما لعجزي... ثم أطل "**بوارو**" على الظلال وقد أمال رأسه قليلا، فسمعت همهمة الرضا والاغتباط من "**رايلاند**" وهو يرفع مسدسه هاتفا:

– ارفع يديك...! ووثب "**ديفز**" إلى الخلف فقطع خط الرجعة على "**بوارو**"... وهكذا انطبق الفخ... وقال الأمريكي:

– يسرني لقاؤك يا سيد "**بوارو**"... وأبدى "**بوارو**" ثباتا رائعا... وراح يجيل ببصره فيما حوله قائلا:

– أين صديقي؟... أهو هنا؟

– أجل، إنكما في الشرك جميعا... شرك "الأربعة العظام". فتساءل "**بوارو**":

– شرك؟... ولكنك مخطئ يا سيدي، فأنت الذي وقعت في هذا الشرك لا أنا وصديقي... وهتف "**رايلاند**" وهو يرفع مسدسه:

– ماذا؟

– إذا أطلقت النار فإنك ترتكب جريمة قتل بمشهد من عشرين عينا ولن تنجو من المشنقة... إن هذا المكان يحاصره رجال "**سكوتلانديارد**" منذ ساعة، وهي الضربة الفاصلة يا سيد "**أيب رايلاند**"...

وصفر صفيرا عجيبا... فعج المكان بالرجال كأنما كان ذلك بسحر ساحر... واعتقلوا "**رايلاند**" وتابعه وجردوهما من سلاحيهما، ثم أخذ "**بوارو**" بذراعي وغادرنا المكان بعد أن تحدث إلى الضابط قليلا... وما كدنا نبتعد عن المحجر حتى عانقني "**بوارو**" عناقا حارا طويلا... وقلت:

– لقد أدركت حيلتهم الصغيرة؟

– إنني كنت أترقبها، وإلا فلماذا أرسلتك في هذه المهمة! وما خطر ببالي قط أن يخدعهم تنكرك واسمك المستعار. فهتفت:

– ماذا تقول؟ إنك لم تنبئني بذلك...

– طالما قلت لك يا "**هاستنجز**" إن صفاء طبيعتك وشرف نفسك يجعلان من المحال أن تخدع غيرك إلا إذا كنت أنت مخدوعا... وهكذا كانوا يعرفون حقيقتك منذ اللحظة الأولى ففعلوا ما قدرت في نفسي أن يفعلوا، وأرادوا أن يتخذوك وسيلة إلى استدراجي، وكانت الفتاة من صنائعهم وعلى اتفاق معهم، فتلت عليك الرسالة، وكتبتها أنت، وأرهقت نفسك في حل رموزها، وهي مدبرة بحيث لا يستعصى عليك حلها، ثم أرسلت إليّ... لكن الذي كانوا يجهلونه هو أنني كنت أترقب حدوث ذلك، فأسرعت إلى المفتش "**جاب**" واتخذنا الترتيبات المناسبة، وانتهى الأمر بانتصارنا...

وعدنا إلى "**لندن**" بأحد قطارات الليل فبلغناها في الساعات الأولى من الصباح متعبين... ولم أكد أغادر الحمام ممنيا نفسي بفطور شهي حتى سمعت صوت المفتش "**جاب**" في قاعة الجلوس فأسرعت إليها.. وكان "**جاب**" يقول:

– لقد قدتنا في مهمة وهمية هذه المرة يا سيد "**بوارو**"، وجعلتنا هدفا للهزء والسخرية... فامتقع وجه "**بوارو**" امتقاعا شديدا ومضى "**جاب**" قائلا:

– حملنا تلك القصة عن الجمعية السرية المزعومة محمل الجد، وكان الأمر كله مزحة من الخادم. فهتف مبهوتا:

– الخادم؟

– أجل... "**جيمس**"... وحقيقة الخبر أنه راهن زملاءه من الخدم على أنه يستطيع تقليد سيده تقليدا ينخدع به حتى سكرتيره، وهو أنت يا سيد "**هاستنجز**"، وأن يدخل عليك قصة ملفقة عن جمعية سرية موهومة تسمى عصابة "الأربعة العظام"... قلت:

– محال؟

– ألا تصدق؟ لقد أخذت السيد "**جيمس**" بنفسي إلى قصر "**هاتون تشيز**"،

وهناك كان السيد "**رايلاند**" الحقيقي في فراشه مستغرقا في النوم، وقد أقسم جميع الخدم أن الأمر كله كان مزاحا... فغمغم "**بوارو**" قائلا:

– لهذا كان يحرص على البقاء في ستر الظلال... ورحنا نتبادل النظرات بعد انصراف "**جاب**"، ثم قال "**بوارو**":

– إننا نعرف الآن يا "**هاستنجز**" أن رقم 2 من "الأربعة العظام" هو "**أيب رايلاند**"، أما المهزلة التي مثلها الخادم "**جيمس**" فكان المقصود بها هو ضمان سبيل التقهقر إذا طرأ ما ليس في حسبانهم... أما هذا الخادم فهو... قلت بشوق:

– من هو؟ فأجاب "**بوارو**" بجد:

– رقم 4...

– 9 –

كان يطيب لـ"**بوارو**" أن يقول إننا نزداد على مر الأيام علما بتفكير أعدائنا وأساليبهم، ولكني كنت أشعر بأننا نحتاج إلى فوز محسوس، فقد ارتكب "الأربعة العظام" منذ احتكاكنا بهم جريمتي قتل واختطفوا "**هاليداي**" وكادوا يفتكون بي وبصديقي، أما نحن فلم نحرز نقطة واحدة... واستخف "**بوارو**" بتذمري قائلا:

– إنهم يضحكون الآن يا "**هاستنجز**"، لكن عندكم معشر الإنجليز مثلا يقول: "من يضحك أخيرا يضحك كثيرا". وسوف ترى لمن تكون العاقبة، ولا يغيبن عنك أننا لا نناضل مجرما عاديًّا بل العقلية الجبارة الثانية في العالم...

ولم أسأله من هو صاحب العقلية الأولى إذ كنت أعرف الجواب لعلمي بشغف صاحبي بالزهو والخيلاء... وعبثا حاولت الوقوف على شيء مما يعده من الخطط لمهاجمة العدو، ولكني استنتجت أنه على اتصال خفي ببعض رجال المخابرات السرية في "**الهند**" و"**الصين**" و"**روسيا**"، وكان قد تخلى عن جميع قضاياه، فأفاد صديقنا المفتش "**جاب**" من ذلك كثيرا، وإن كان نجاحه يعود في معظم الأحوال إلى

ملاحظة يلقي بها إليه "بوارو" بغير اكتراث... ولم يجحد "**جاب**" هذا الفضل فكان يبادر إلى إبلاغ "**بوارو**" بكل حادث يشتم منه أن له صلة قريبة أو بعيدة بقضية "الأربعة العظام"... وعندما عُهد إليه بما دعته الصحف "**لغز الياسمين الأصفر**" أبرق إلى "**بوارو**" يسأله هل يهمه الذهاب إليه والنظر في تلك القضية... وهكذا ألفينا أنفسنا بعد شهر من حادث "**أيب رايلاند**" في طريقنا إلى بلدة "**ماركت هاندفورد**" بمقاطعة "ورستر"، وهي المكان الذي وقع فيه الحادث. وسألني "**بوارو**" عن رأيي وهو ينثني في مقعده بالقطار فقلت:

– إني أعتقد أن إسراعك على هذا النحو دليل واضح على أنك تعتقد أن موت السيد "**باينتر**" جريمة قتل وليس انتحارا ولا نتيجة حادث عارض.

– كلا... كلا، فلو سلمنا بأن السيد "**باينتر**" ذهب ضحية حادث مروع، فإن ثمة أمورا غامضة يعوزها الإيضاح، فلنستعرض الحقائق الأساسية بهدوء وانتظام. قلت:

– لنبدأ بالسيد "**باينتر**"، إنه شيخ ثري مثقف في الخامسة والخمسين، وهو مولع بالسفر والطواف بالأقطار، لم يمكث خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية سوى فترات وجيزة في "**إنجلترا**"، ولكنه مل حياة السفر والتنقل فجأة، فابتاع بيتا صغيرا في "**ماركت هاندفورد**"، وعقد عزمه على الإقامة والاستقرار، وكان أول ما فعله أن استقدم "**جيرالد باينتر**" ابن أخيه الأصغر، واقترح عليه الإقامة معه بقصر "**كروفتلاندز**" كما يسمى البيت الذي ابتاعه، وكان "**جيرالد باينتر**" فنانا سيئ الحال فتقبل اقتراح عمه بغبطة وسرور، وكان يعيش مع عمه منذ نحو سبعة أشهر عندما حدثت المأساة. فغمغم "**بوارو**":

– إن طريقتك في السرد والتحليل رائعة، وإني لأقول لنفسي: « هذا كتاب يتكلم وليس صديقي "**هاستنجز**" ». ومضيت في حديثي دون أن ألقي إليه بالا:

– وكان للسيد "**باينتر**" بطانة معتدلة، ستة خدم فضلا على خادمه الصيني الخاص "**آه لينج**". وغمغم "بوارو" مرددا قولي:

- خادمه الصيني "**آه لينج**".

- وفي يوم الثلاثاء الماضي شكا السيد "**باينتر**" وعكة بعد العشاء وأرسل أحد الخدم في طلب الطبيب، واستقبل السيد "**باينتر**" الطبيب بغرفة المكتبة إذ أبى أن يأوي إلى فراشه ولم يعرف أحد ماذا دار بين الرجلين، لكن الدكتور "**كوينتين**" طلب مدبرة المنزل قبل مغادرة البيت وأخبرها بانه أعطى السيد حقنة تحت الجلد؛ لأن قلبه في حالة سيئة جداً، وأوصى ألا يزعجه أحد، ثم تطرق إلى إلقاء أسئلة غريبة عن الخدم ومتى التحقوا بخدمة القصر ومن قِبل مَن جاءوا وما إلى ذلك، وأجابتِ مدبرة المنزل عن هذه الأسئلة بخير ما استطاعت، ولكنها كانت في أشد العجب مما عسى أن تكون الغاية منها.

وفي الصباح التالي اكتشف أمر هائل رهيب، فقد كانت إحدى الخادمات تهبط السلم وإذا بها تشم رائحة لحم يحترق آتية من مكتبة سيدها، فحاولت فتح الباب، ولكنه كان موصدا من الداخل، وتعاونت مع الخادم الصيني على فتحه عنوة، فطالعهما مشهد مروع فظيع، إذ كان السيد "**باينتر**" مكبًّا بصدره على موقد الغاز، وقد احترق وجهه ورأسه حتى محيت معالمهما ولم يظن أحد من أهل القصر حينذاك أن الأمر حادث فظيع أليم، وإذا كان ثمة من يستحق اللوم فهو الطبيب الذي أعطى المريض مخدرا وتركه في ذلك الوضع الخطر، ثم اكتشف أمر عجيب، فقد وجدت على الأرض صحيفة خطت عليها كلمات بالمداد، وكان على مقربة من مقعد السيد "**باينتر**" مكتب صغير، كما كانت سبابة يد الميت اليمنى ملوثة بالمداد حتى المفصل الثاني، وكان التفسير الواضح لذلك أن السيد "**باينتر**" أعجزه الضعف عن استعمال القلم، فغمس أصبعه في المحبرة، وخط تينك الكلمتين على الصحيفة التي كانت أمامه، لكن الكلمتين كانتا خاليتين من كل معنى، كانتا "**الياسمين الأصفر**"!

وفي قصر "**كروفتلاندز**" كثير من أشجار الياسمين الأصفر التي تكسو الأسوار، فظن أن لهذه العبارة الصادرة عن رجل يحتضر علاقة بها، وأنها تدل على أن الرجل

المسكين كان يهذي، بيد أن الصحف التي تترقب كل ما تشتم منه رائحة الغرابة والشذوذ ما لبثت أن تلقفت القصة ودعتها "**لغز الياسمين الأصفر**" ولو أن الكلمات فيما أرجح لا قيمة لها إطلاقًا. قال "**بوارو**" :

– لا قيمة لها؟ لا ريب في أنها كذلك ما دام هذا رأيك فيها. فحدجته بطرفي ولكني لم أر في عينيه ما يشف عن السخرية والاستهزاء فقلت:

– عند ذلك جاءت مفاجآت التحقيق، فقد كان هناك شيء من شعور الاستياء ضد الدكتور "**كوينتين**"، ولا سيما أنه لم يكن طبيب البلدة بل كان ينوب عن طبيبها الدكتور "**بوليذو**" الذي قام بإجازة لمدة شهر ليستريح من أعماله الشاقة المرهقة، ثم إن الناس كانوا يرون أن إهماله هو السبب المباشر للحادث، لكن شهادته أمام لجنة التحقيق أحدثت ما يشبه ضجة، فقد كان السيد "**باينتر**" منحرف الصحة منذ وصول الطبيب إلى البلدة، وكان الدكتور "**بوليذو**" يتولى العناية به قبل قيامه بالإجازة، فلما عاده الدكتور "**كوينتين**" لأول مرة راعته بعض الأعراض، وكان قد عاده مرة واحدة قبل الليلة التي استدعى فيها لعيادته بعد العشاء، وما إن اختلى بالسيد "**باينتر**" حتى كاشفه بقصة غريبة، وأول ما يجدر بنا ذكره هو أن السيد "**باينتر**" لم يكن يشعر بأي توعك في ذلك المساء، لكن طعم نوع من أنواع الصلصة الهندية رابه في أثناء العشاء، فانتحل سببا لإبعاد خادمه الصيني بضع دقائق، ثم أفرغ محتويات طبقه في إناء قدمه إلى الطبيب كي يرى هل فيه مادة غريبة... وعلى الرغم من قوله إنه لا يشعر بأي تعب، فقد رأى الطبيب أن هذه الشبهة أثرت في نفسه تأثيرا سيئا أحدث بقلبه ضعفا، فحقنه بمخدر بل بالاستركنين... هذه هي القضية كلها سوى الختام... فإن الصلصة التي لم يأكلها السيد "**باينتر**" عند تحليلها ظهر أنها تحتوي من مسحوق الأفيون على ما يكفي لقتل رجلين. وكففت عن الكلام فسألني "**بوارو**" :

– وما الذي تستنتجه يا "**هاستنجز**"؟

– من العسير أن يقطع المرء برأي... فقد يمكن أن يكون حادثا... وأن تكون

محاولة تسميم السيد "**باينتر**" في الليلة نفسها مجرد مصادفة.

– ولكنك لا تعتقد ذلك؟ إنك تؤثر أن تعتقد أنها جريمة قتل؟

– أليس هذا رأيك أيضا؟

– إننا نختلف في طريقة التفكير يا صديقي... فما أحاول القطع بأحد الرأيين... القتل أو الحادث العارض، فإن هذا سيتضح لنا إذا ما فرغنا من جلاء المشكلة الأخرى "**لغز الياسمين الأصفر**"، وبهذه المناسبة ألم تغفل شيئا من التفاصيل؟

– أتعني ذينك الخطين المتقاطعين الذين وجدا تحت هذه الكلمات؟ إني لم أر فيهما شيئا من الأهمية.

– إن ما تراه هو المهم عندك دائما يا "**هاستنجز**"... لكن دعنا ننتقل من "**لغز الياسمين الأصفر**" إلى لغز "**الصلصة الهندية**".

– أجل... فمن الذي دس فيها السم؟ ولماذا؟ لقد كان "**آه لينج**" هو الذي أعد تلك الصلصة، لكن ما الذي يحمله على محاولة قتل سيده؟ أهو عضو في إحدى الهيئات الصينية السرية؟ إن المرء ليقرأ عن مثل هذه الأمور العجيبة، وقد يكون اسم الهيئة التي ينتمي إليها "**جمعية الياسمين الأصفر**"... وهناك أيضًا "**جيرالد باينتر**"... ووقفت عن الكلام، فقال "**بوارو**" يستحثني:

– أجل هناك "**جيرالد باينتر**" كما تقول، وقد تناول العشاء في تلك الليلة خارج القصر، ثم إنه وارث عمه. قلت:

– لعله استطاع العبث ببعض المواد التي أعدت منها الصلصة، فعمل على الابتعاد عن القصر حتى لا يشارك عمه في تناولها. ويبدو لي أن تفكيري راق "**بوارو**" فاقبل على الاستماع إليّ باحترام لم آلفه منه، فمضيت أفترض ما يمكن أن يكون قد حدث وقلت:

– وإنه ليعود إلى القصر متأخرا فيرى النور في مكتبة عمه، ويدخل، ويجد أن خطته قد فشلت، فيدفع الشيخ إلى نار المدفأة.

– لكن السيد "**باينتر**" كان على شيء من قوة البنية يا "**هاستنجز**" وما كان ليترك نفسه يموت حرقًا دون أن يبدي مقاومة... إن مثل هذا التصوير غير عملي.

فهتفت قائلا:

– لقد أوشكنا على الوصول يا "**بوارو**" فأخبرني برأيك أنت. ورماني "**بوارو**" بابتسامة وهو يبسط صدره، وقال بعظمة:

– لو فرضنا أن هناك جريمة قتل لقام أمامنا فوراً هذا السؤال: "لماذا اختار القاتل هذه الطريقة الغريبة لتنفيذ جريمته؟" أنا لا أستطيع أن أجد لذلك جوابا سوى أنه أراد محو ما يدل على شخصية القتيل إذ احترق الوجه احتراقًا تاما.

– ماذا؟ أتظن...

– على رسلك يا "**هاستنجز**"، لقد فكرت في هذا الفرض، هل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الجثة ليست جثة السيد "**باينتر**"؟ هل هناك شخص آخر يمكن أن تكون هذه جثته؟ إني ترويت في هذين السؤالين جميعا فكان الجواب بالنفي.

فقلت وقد خاب ظني:

– أوه! وبعد ذلك؟

– بعد ذلك قلت لنفسي: «ما دامت أمامي مسألة تعيي فهمي فينبغي أن أتولى بحثها، وغير خليق بي أن أقف على "الأربعة العظام" كل جهدي واهتمامي»... آه... قد وصلنا! وقال "**بوارو**" مفكرا ونحن نتأهب لمغادرة القطار:

– أجل... يجب ألا يكون المرء أسير فكرة واحدة، وقد كنت في خطر الوقوع في هذا الخطإ الشنيع. هل تصدق يا صديقي أنني أشفق على نفسي من هذا الخطإ؟ حتى هنا... في هذه القضية؟ ما عسى أن يكون هذان الخطان المتقاطعان اللذان ذكرتهما في تلخيصك سوى بداية رقم 4 فهتفت ضاحكا:

– يالله يا "**بوارو**".

– أليس هذا سخيفا! إني لأتوهم يد "الأربعة العظام" في كل مكان. آه! إن صديقنا "**جاب**" جاء لاستقبالنا. كان "**جاب**" مفتش "**سكوتلانديارد**" في

انتظارنا ومعه إحدى سيارات البوليس. وراح "بوارو" يستطلع رأيه في الحادث في أثناء الطريق، فقال المفتش بحيرة وارتباك:

– لولا وجود مسحوق الأفيون بالصلصة لما ترددت لحظة واحدة في القطع بان الموت نتيجة حادث عارض. فإن وضع رأس رجل حي في النار عمل لا يجوز في عقل أحد، فقد كان الرجل خليقا بان يملأ البيت ضجة وصياحا.

وبلغنا القصر، وهو بناء أبيض مربع بسيط المظهر، تغشى واجهته الأشجار المتسلقة، وخاصة أشجار الياسمين الأصفر بزهورها المتناثرة، وأخذنا "جاب" إلى المكتبة وهي إلتي وقعت بها المأساة وكانت غرفة فسيحة منخفضة، ونظر "بوارو" فوراً إلى باب يفتح على شرفة مرصوفة بالحصباء، وقال:

– ألم يكن هذا الباب موصدا؟ أجاب المفتش:

– هذه هي النقطة الغامضة في الموضوع كله. فإن الطبيب عند انصرافه لم يزد على إغلاق الباب وراءه ولكنه وجده في الصباح مقفلا بالمفتاح، فمن الذي أقفله؟ ويؤكد "آه لينج" أن باب الشرفة كان موصدا بالمزلاج، بيد أن الدكتور "كوينتين" يظن أنه كان مقفلا بغير المفتاح، وإن كان لا يجزم بذلك، ولو استطاع أن يتذكر ذلك بصفة قاطعة لتغيّر وجه المسألة تماما. فإن السيد "باينتر" إذا كان قد قتل فلا شك في أن يكون القاتل قد دخل الغرفة من بابها أو من باب الشرفة. فإذا كان قد جاء من الباب فهو من أهل البيت، أما إذا كان قد دخل الغرفة من باب الشرفة فيمكن أن يكون منهم أو من غيرهم، وتعتقد الخادمة التي فتحته عند تحطيم باب الغرفة والعثور على الجثة أنه لم يكن موصدا، ولكنها شاهدة لا يعول على أقوالها؛ لسذاجتها واستسلامها للوهم والخيال. قال "بوارو":

– ومفتاح باب الغرفة؟

– كان ملقى على الأرض بين حطام الباب، ومن الممكن أن يكون قد سقط من الثقب أو ألقاه هناك أحد من الذين دخلوا الغرفة، كما يمكن أن يكون قد أدخل من تحت الباب من الخارج. وراح "بوارو" يتلفت حوله متجهما وهو يغمغم:

– إنني لا أرى نورا، فليس لديَّ أهم دليل أهتدي به وهو باعث الجريمة. فقال "**جاب**" :

– إن لدى الشاب "**جيرالد باينتر**" باعثا قويًا، فقد كان سيئ السير متلافا، وأنت أدرى بأخلاق أهل الفنون. وابتسم "**بوارو**" قائلا:

– أتذر الرماد في عيني يا عزيزي "**جاب**"؟ إني لعلى ثقة بأنك تحصر شبهتك في الخادم الصيني، ولكنك شديد المكر والدهاء تريد أن أساعدك فتعمد إلى اللف والدوران. فانفجر "**جاب**" في الضحك وقال:

– أنت لا تخفى عليك خافية يا "**بوارو**"، أجل، إنني أشك في الصيني، فالمعقول أنه هو الذي دس السم في الصلصة، وإذا كان قد حاول قتل سيده مرة فما كان ليحجم عن إعادة المحاولة، لكن الباعث هو الذي يعييني فهمه، وأكبر ظني أن الانتقام الذي اشتهر به الوثنيون أو شيء من هذا القبيل. قال "**بوارو**" :

– إني لفي حيرة من ذلك، ألم تقع أية سرقة؟ ألم يفقد شيء؟ مجوهرات أو نقود أي أوراق؟

– كلا... لم يقع شيء كهذا. وأرهفت سمعي كما فعل "**بوارو**"، واستطرد المفتش قائلا:

– أعني أنه لم يسرق شيء... لكن الشيخ كان مشتغلا بوضع كتاب لم نعلم عنه شيئا إلا في هذا الصباح عندما حمل البريد رسالة من الناشر يطلب موافاته بالأصول. ويظهر أن الشيخ كان قد فرغ من كتابته، وبحثت أنا والشاب "**باينتر**" في كل مكان ولكننا لم نجد له أثرا. وومض في عيني "**بوارو**" ذلك اللهب الأخضر الذي كنت أعرفه جيدا وقال:

– وما كان اسم هذا الكتاب؟

– أظن أنه كان يسمى "اليد الخفية في الصين". فهتف "**بوارو**" :

– آه! أريد أن أرى ذلك الخادم الصيني. وأقبل الصيني مطرقا إلى الأرض لا تنم أساريره الجامدة عن شيء مما يعتمل في نفسه. وسأله "**بوارو**" :

– أأنت حزين يا "**آه لينج**" على موت سيدك؟

– حزين جداً، فقد كان سيدا كريما.

– وهل تعرف قاتله؟

– لو عرفته لأنبأت رجال البوليس. ودارت بينهما الأسئلة والأجوبة، فأصر الخادم على أنه أعد الصلصة بنفسه، ولم تمسها يد أحد سواه، وأن باب الشرفة كان موصدا بالمزلاج ليلة الحادث.

– أتقول إنك لا تعرف شيئا عن عبارة "الياسمين الأصفر"؟

– كلا، وماذا عساي أن أعرف؟

– ولا عن العلامة المكتوبة تحتها؟ وانحنى "**بوارو**" فجأة على منضدة صغيرة بجانبه وخط بإصبعه شيئا في الغبار الذي كان يعلوها، ورأيت ما خطه قبل أن يسرع بمحوه، وكان رقم 4، وكان لذلك أعجب التأثير في "**آه لينج**"، فقد ارتسمت على وجهه آيات الرعب والهلع، ولكنه سرعان ما استرد ثباته وجموده وأصر على الإنكار وغادر الغرفة، وخرج لإحضار الشاب "**باينتر**"، فخلوت أنا و"**بوارو**" إلى أنفسنا وصاح "**بوارو**":

– "الأربعة العظام" يا "**هاستنجز**"، "الأربعة العظام" مرة أخرى، فقد كان "**باينتر**" رحالة عظيما، ولا ريب في أن كتابه كان يتضمن معلومات عن رقم 1، "**لي تشانج ين**"، الرأس المدبر والعقل المفكر لـ"الأربعة العظام".

وأردت أن أستزيد من الإيضاح، لكن "**جاب**" أقبل مع الشاب "**باينتر**" فقطعنا الحديث، وكان "**جيرالد باينتر**" شاباً وديعا يدل مظهره على الدماثة واللين، وأخذ يجيب عن أسئلة "**بوارو**" في سرعة وطلاقة فقال:

– تناولت العشاء عند بعض جيراننا وهم آل "**وتشرليس**" وعدت في الساعة الحادية عشرة، وكان جميع الخدم قد ناموا، وظننت أن عمي نام كذلك، وأظن أنني لمحت ذلك الخادم الصيني "**آه لينج**" يدور حول ركن الردهة ولكنني أعتقد أنني كنت واهما في ذلك.

– ومتى رأيت السيد "**باينتر**" آخر مرة قبل أن تحضر للإقامة معه؟

– منذ كنت غلاما في العاشرة، فقد شجر شقاق بينه وبين أبي كما تعلم.

– ولكنه لم يجد صعوبة في الاهتداء إليك على الرغم مما مضى من السنين؟

– لقد كان من حسن الحظ أني رأيت الإعلان الذي نشره محاميه.

وكانت خطواتنا التالية زيارة الدكتور "**كوينتين**"، فكانت قصته مطابقة تماما لما أدلى به أمام مجلس التحقيق وقال:

– إني لأعتقد اعتقادا جازما أن الصيني هو الذي دس مسحوق الأفيون في الصلصة، أما إلقاء الشيخ في النار فعمل لا يتفق مع خلق هذا الخادم، أما باعث الجريمة فلا أستطيع فهمه. وذهب المفتش "**جاب**" إلى مركز البوليس لشأن من الشؤون فقلت لـ"**بوارو**" معقبا على قول الطبيب ونحن نجتاز الشارع الرئيسي بالبلدة:

– أتعتقد أن الصيني أدخل البيت حليفا له؟ وبهذه المناسبة أرى أن بوسعنا الاعتماد على المفتش "**جاب**" في مراقبته فإن أعوان "الأربعة العظام" أسرع في الاختفاء من خيل السباق.

– إن "**جاب**" يراقب الرجلين رقابة صارمة منذ اكتشاف الجثة.

– نحن نعلم على كل حال أن "**جيرالد باينتر**" لا يد له في الجريمة.

– إنك لتعلم دائما أكثر مما أعلم يا "**هاستنجز**"! فضحكت قائلا:

– إنك لا تفضي بقول واضح أيها الثعلب الماكر.

– لا تكلمني... حتى أطمئن وأعرف أن كل شيء على ما يرام أمامي، فيما عدا عبارة "**الياسمين الأصفر**" وقد بدأت أتفق معك في أنها لا شأن لها بالجريمة، وفي مثل هذه القضية يجب أن تقطع برأي فيمن هو الكاذب من أشخاصها وقد فعلت ذلك، ومع هذا...

ثم انطلق من جانبي كما ينطلق السهم واندفع فجأة إلى مكتبة قريبة، وعاد بعد دقائق قلائل يتأبط ربطة، ولحق بنا "**جاب**"، فذهبنا جميعا إلى الفندق.

واستيقظت من النوم متأخرا في صباح اليوم التالي، فلما نزلت إلى قاعة الجلوس

المحجوزة لنا رأيت "بوارو" قد سبقني إليها وهو يذرعها جيئة وذهابا وعلى وجهه آيات الألم والعناء وصاح وهو يشير إليّ بيد مضطربة:

- لا أكتمك يا "هاستنجز" أن المسألة أصبحت واضحة أشد الوضوح وأن الاعتقال قد تم، آه... لكن تحليلي السيكولوجي كان ضعيفا. إن المرء لا يكتب رسالة وهو في النزع الأخير إلا إذا كانت مهمة جداً، ومع ذلك فقد كانوا يقولون جميعا "الياسمين الأصفر؟ إنها عبارة لا معنى لها" لكن اسمع ما تعنيه هذه العبارة. ورفع كتاباً صغيراً كان في يده وهو يقول:

- لقد بدا لي أنني أحسن صنعا ببحث الموضوع بحثا دقيقا، فما حقيقة الياسمين الأصفر؟ إن هذا الكتاب الصغير قد أوقفني على كل شيء، فاعرني سمعك. وراح يقرأ:

- "**جلسيميني راديكس**". الياسمين الأصفر تركيبه: القلويات وهي الـ"**جلسيميني**"، وهو سم قوي المفعول يشبه الـ"**كونييني**"، و"**راديكس**"، ومفعوله كمفعول الاستركنين، وحامض "**جلسيميك**" وغيره، ومجموع هذه العناصر يحدث ضيقا شديدا بالجهاز العصبي المركزي، وفي أواخر مراحل مفعوله يشل أطراف الأعصاب المحركة، وإذا أعطي بجرعات كبيرة أحدث غثيانا وفقدا للقوة العضلية، ويحدث الموت نتيجة لشل المركز التنفسي. ثم أردف "**بوارو**" قائلا:

- أرأيت يا "**هاستنجز**"؟ لقد لمحت ومضة من الحقيقة عندما لاحظ "**جاب**" تعذر إلقاء رجل حي في نار الموقد، وأدركت أن "**باينتر**" حرق بعد موته.

- لكن لماذا؟ ما الذي يرمي إليه القاتل من وراء ذلك؟

- إذا أردت يا صديقي أن تطلق الرصاص على رجل بعد موته أو تطعنه أو تضربه على الرأس، فإنه يكون من الواضح أن الإصابات حدثت بعد الوفاة. أما إذا احترق رأسه حتى صار كتلة سوداء فلن يحاول أحد البحث عن أسباب غامضة للموت، والرجل الذي نجا من السم في العشاء لا يعقل أن يقتل بالسم عقب نجاته مباشرة، والسؤال هو: من الكاذب من المتصلين بهذا الحادث؟ فهتفت مبهوتا:

– ماذا!

– أيدهشك هذا يا "**هاستنجز**"؟ إن "**آه لينج**" كان على علم بوجود "الأربعة العظام"، وكان هذا واضحا جدًا إلى درجة أنه لم يخطر بباله أن لهم شأنا في الجريمة حتى نبهته أنا إلى ذلك، ولو كان هو القاتل لما بدا عليه ذلك الشحوب ولاستطاع الاحتفاظ بثبات جنانه ورباطة جأشه، وهكذا عولت على تصديق "**آه لينج**"، وركزت شكوكي حول "**جيرالد باينتر**"، وبدا لي أنه من السهل على رقم 4 أن ينتحل شخصية ابن أخ اختفى عن عمه منذ زمن بعيد. وصحت بذهول:

– ماذا! رقم 4؟

– كلا يا "**هاستنجز**"، إن "**جيرالد باينتر**" ليس رقم 4 فما كدت أقرأ هذا الكتاب عن الياسمين الأصفر حتى تجلت لي الحقيقة، والآن... من هو الذي كانت أمامه الفرصة سانحة للعبث بالصلصة؟

– "**آه لينج**"... ولا أحد سواه.

– ولا أحد سواه؟ وما رأيك في الطبيب؟

– لكن الطبيب لم يكن هناك إلا بعد العشاء.

– أجل بعد العشاء لم يكن بالصلصة التي قدمت على المائدة شيء من مسحوق الأفيون، لكن الشيخ كان تحت تأثير الشبهات التي أثارها بنفسه الطبيب في زيارته الأولى فلم يذقها، بل احتفظ بها ليفحصها الطبيب، وأرسل في استدعائه فوراً طبقا لما كان متفقا عليه بينهما، ويصل الطبيب فيأخذ الصلصة لإرسالها للتحليل، ثم يعطي السيد "**باينتر**" حقنة يزعم أنها من الاستركنين، ولكنها تحوي في الحقيقة جرعة قاتلة من الياسمين الأصفر... وإذا ما بدأ العقار يفعل فعله غادر البيت بعد رفع مزلاج باب الشرفة ثم يعود في الليل من هذا الباب، ويعثر على أصول الكتاب الذي وضعه الشيخ، ويلقي بجثة القتيل في الموقد، وقد علم "**باينتر**" وهو يحتضر حقيقة المادة التي حقن بها، وحاول اتهام "الأربعة العظام" بقتله، وكان من السهل أن يمزج الدكتور "**كوينتين**" الصلصة بمسحوق الأفيون قبل

إرسالها للتحليل، وهو يفضي بحديثه مع "**باينتر**" على الوجه الذي يروقه، ويذكر حقنة الاستركنين عرضا حذرا من العثور على أثر الإبرة بذراع القتيل، وهكذا توزعت الشبهات بين أن يكون الموت نتيجة حادث عارض وبين اتهام "**آه لينج**" بقتل سيده بسبب وجود الأفيون في الصلصة.

– لكن لا يمكن أن يكون الدكتور "**كوينتين**" رقم 4.

– بل أعتقد أنه يمكن أن يكون هو، ولا ريب في أن هناك طبيبا حقيقيًّا باسم الدكتور "**كوينتين**" لعله الآن في الخارج بعيداً عن "**إنجلترا**"، فانتحل رقم 4 شخصيته لفترة وجيزة، وقد تم الاتفاق بينه وبين الدكتور "**بوليذو**" طبيب هذه البلدة عن طريق المراسلة: إذ أصيب الطبيب الذي كان مقررا أن يحل محله بمرض مفاجئ. وهنا اندفع إلى القاعة المفتش "**جاب**" محتقن الوجه فصاح "**بوارو**" بقلق:

– هل قبضتم عليه؟ فهز "**جاب**" رأسه قائلا:

– لقد عاد الدكتور "**بوليذو**" من إجازته هذا الصباح بناء على برقية لا نعرف من أرسلها إليه، أما الطبيب الآخر فقد رحل في الليلة الماضية، ولكننا سنظفر به. قال "**بوارو**" وهو يرسم بملعقته على المائدة رقم 4:

– لا أظن.

– 10 –

تعودت و"**بوارو**" أحيانا أن نتناول العشاء بمطعم صغير في "**سوهو**"، وحدث أن صادفنا هناك ذات مساء المفتش "**جاب**" فقال له "**بوارو**" معاتبا:

– إنك لا تحضر لزيارتنا في هذه الأيام، ولم نرك منذ "**لغز الياسمين الأصفر**" وقد مضى على ذلك ما يقرب من شهر.

– لقد كنت في الشمال، ألا يزال "الأربعة العظام" على ما يرام؟ فهز "**بوارو**" أصبعه محتجًّا وقال:

– آه! إنك تهزأ بي لكن "الأربعة العظام" موجودون حقًّا.

– لا أشك في ذلك، ولكنهم ليسوا من الخطورة بحيث تعتقد.

– أنت مخطئ أشد الخطإ يا صديقي، إن أعظم قوى الجريمة والشر في العالم اليوم هم "الأربعة العظام".

– فلندع هذا الموضوع الذي يهيم بك في أودية الخيال يا سيد "**بوارو**"، هل تعرف لعبة الشطرنج؟

– أجل، وقد لعبتها أحيانا.

– هل سمعت بالحادث العجيب الذي وقع أمس؟ كانت هناك مباراة بين لاعبين من الشهرة العالمية بمكان، فمات أحدهما في أثناء اللعب.

– لقد قرأت شيئا عن ذلك وكان الدكتور "**سافارونوف**" البطل الروسي أحد اللاعبين، أما الآخر الذي مات بسكتة قلبية فهو الشاب الأمريكي النابه "**جلمور ولسون**"، إنه لحادث عجيب، وإذا لم تخطئ فراستي فإنك مهتم به اهتماما خاصًا.

فضحك "**جاب**" ضحكة مضطربة وقال:

– أصبت يا "**بوارو**"، إنني في أشد الحيرة والارتباك، فقد كان "**ولسون**" سليما قويًا ليس بقلبه شائبة من ضعف أو إخلال، حتى ليبدو موته الفجائي لغزا معقَّداً.

– أتشتبه في أن يكون الدكتور "**سافارونوف**" قد أزاله من طريقه؟

– ما رأيك إذن؟ ما الباعث على تسميم "**ولسون**"؟ إني لا أظن أنك تشتبه في أنه مات بالسم.

– بالتأكيد لقد قرر الطبيب رسميًا أنه مات بالسكتة القلبية، ولكنه أومأ إلينا بأنه غير مقتنع بصحة هذا التشخيص.

– ومتى يقومون بتشريح الجثة؟

– الليلة، وسيساعدنا التشريح كثيرا، ولكني لا أكاد أرى سببا يحمل أحدا من الناس على قتله فقد كان شابًا وديعا رضي الأخلاق جاء إلى هنا توًا من "**الولايات المتحدة**"، ولم يكن في العالم كله من يضمر له العداء بحسب ما يظهر لنا. قلت:

– يظهر أن فكرة قتله مستحيلة. فقال "**بوارو**" مبتسما:

– كلا، لكن لدى "**جاب**" رأيا خاصًا بلا ريب.

– أجل يا سيد "**بوارو**"، إني لا أعتقد أن "**ولسون**" كان المقصود بالسم، بل المقصود هو الرجل الآخر.

– الدكتور "**سافارونوف**"؟

– نعم، اختلف "**سافارونوف**" مع البلاشفة في أول الثورة حتى أعلن أنه قتل، ولكنه كان في الحقيقة قد استطاع الفرار وظل ثلاث سنين يعاني من المشاق ما يشيب ناصية الطفل في قفار "**سيبيريا**"، وكان لتلك المشاق والآلام عليه من التأثير أشده حتى لقد أعلن أصدقاؤه ومعارفه أنهم لم يكادوا يعرفونه، لقد اشتعل رأسه شيبا، وغدا كالشيخ الذي أوهنه الكبر واستنزف قوته، وهو شبه مقعد وقلما يغادر بيته، كما أنه مقيم بمفرده مع ابنة أخت له تدعى "**سونيا دافيلوف**" وخادم روسي في طريق "**وستمنستر**"، ولعله يعتقد أنه لا يزال هدفا لاعتداء البلاشفة، وكان راغبا أشد الرغبة عن الاشتراك في مباراة الشطرنج هذه، ولقد رفض الاشتراك في مثلها مرارا من قبل رفضا باتًّا حتى لقد تناولته الصحف بالنقد والتجريح وتحداه "**جلمور ولسون**" فيما اشتهر به أبناء العم "**سام**" من الإصرار والعناد، وأخيرا اضطر الروسي إلى قبول التحدي. فلماذا كان يصر على الإباء والامتناع؟ أما رأيي فهو أن الرجل كان يريد تحاشي الظهور ولفت الأنظار إليه حتى لا يقتفي خصومه أثره.

– أليس هناك أحد يمكن أن يفيد من موت "**سافارونوف**"؟

– أظن أن ابنة أخته تفيد من ذلك، فقد ورث منذ عهد قريب ثروة طائلة تركتها له السيدة "**جوسبوجا**" التي كان زوجها من محتكري السكر في العهد القيصري، وكانت لهما فيما مضى مسألة غرامية، وقد أبت أن تصدق بموته عندما أعلن البلاشفة ذلك.

– وأين عقدت المباراة؟

– في شقة "**سافارونوف**" إذ إنه مقعد لا يستطيع الحراك كما أخبرتك.

– وهل كان هناك كثير من المشاهدين؟

- لا أقل من اثني عشر شخصا. فقال "**بوارو**" :
- إن مهمتك ليست باليسيرة يا عزيزي "**جاب**" .
- لو تأكدت من أن "**ولسون**" قتل بالسم لاستطعت البدء في العمل.
- ألم يخطر لك أن القاتل قد يقدم على محاولة أخرى إذا صح فرضك بأن "**سافارونوف**" هو الهدف؟
- خطر لي هذا بالتأكيد، وهناك رجلان من رجالي يراقبان مسكن "**سافارونوف**" . فقال "**بوارو**" بجفاء:
- سيكون هذا الاحتياط جليل الفائدة إذا ذهب إلى المسكن رجل يحمل قنبلة تحت إبطه.
- أرى أنك بدأت تهتم بالحادث يا سيد "**بوارو**" ، فهل تحب أن تأتي إلى معرض الجثث لمشاهدة جثة "**ولسون**" قبل أن يبدأ الأطباء في تشريحها؟ فقد يكون دبوس ربطة عنقه منحرفا عن موضعه فيوحي هذا إليك بفكرة تحل طلاسم هذا اللغز.
- أجل هيا بنا إلى معرض الجثث. ورأيت من اهتمام "**بوارو**" بهذا الحادث ما أثلج صدري، فقد صرفه "الأربعة العظام" عن كل شيء منذ زمن بعيد، ولقد حز في نفسي منظر ذلك الشاب الأمريكي المنكود الذي لقي منيته على هذا النحو الأليم، أما "**بوارو**" فراح يفحص الجثة بعناية واهتمام، ولم يكن بها أية علامة سوى أثر جرح صغير باليد اليمنى، وقال "**جاب**" :
- لقد قال الطبيب إن هذا حرق وليس جرحا. وحول "**بوارو**" التفاته إلى محتويات جيوب الميت التي بسطها أحد المعاونين أمامه لفحصها، ولم تكن سوى منديل ومفاتيح ومحفظة مليئة بأوراق النقد وبضع رسائل لا أهمية لها، ولكن شيئا واحدا أثار اهتمام "**بوارو**" فهتف قائلا:
- قطعة شطرنج! إنه فرس أبيض، كانت هذه في جيبه؟ أجاب "**جاب**" :
- كلا، بل كان قابضا عليها بيده، وقد خلصناها من بين أصابعه بصعوبة، وينبغي إعادتها إلى الدكتور "**سافارونوف**" ، فإنها قطعة من شطرنج بديع جداً

مخروط من العاج.

– اسمح لي بأخذها إليه فإنها ستكون حجة لي في زيارته. فهتف "**جاب**" :

– آه! أتريد الاشتراك في هذه القضية؟

– أعترف بذلك، فقد كنت بارعا حقًّا في إثارة اهتمامي. وانثنى "**بوارو**" إلى الجثة قائلا :

– أليست لديك تفاصيل أخرى تستطيع الإدلاء بها إليَّ.

– لا أظن ذلك.

– ولا أن الميت كان أعسر؟

– إنك لساحر يا "**بوارو**"، كيف عرفت ذلك؟ لقد كان يستعمل يده الشمال حقًّا، وإن كان هذا لا صلة له بالحادث. فبادر "**بوارو**" قائلا :

– ليس له به أية صلة وإنما أردت المزاح معك. وفي صباح اليوم التالي كنا في طريقنا إلى شقة الدكتور "**سافارونوف**" في "**وستمنستر**" قلت :

– "**سونيا دافيلوف**"... إنه لاسم جميل. فرشقني "**بوارو**" بنظرة شزراء وقال :

– إنك من أهل الهوى والخيال ولا أمل في إصلاحك! إنك لتستحق أن يتضح لنا أن "**سونيا دافيلوف**" ليست إلا صديقتنا وعدوتنا الكونتسة "**فيرا روساكوف**". وما إن طرق هذا الاسم البغيض سمعي حتى اعترتني الكآبة وقلت :

– لا ريب في أنك لا تشتبه يا "**بوارو**"...

– كلا... كلا... إنما أردت مداعبتك، إن "الأربعة العظام" لا يملكون على تفكيري إلى هذا الحد مهما يقل صديقنا "**جاب**". وفتح لنا باب المسكن خادم جامد الأسارير إلى درجة تثير العجب، فأبرز "**بوارو**" بطاقة خط عليها المفتش "**جاب**" بضع كلمات لتقديمه والتعريف بشخصه، فأدخلنا إلى قاعة منخفضة مستطيلة حافلة بفاخر الأثاث والرياش وثمين التحف، وقد علقت على الجدران بضع أيقونات عجيبة، وفرشت الأرض بالسجاد العجمي، وعلى منضدة جهاز الشاي الروسي المعروف باسم "**الساموفار**". وأخذت أتفحص أيقونة بدا لي أنها

عظيمة القيمة، ثم التفت وإذا بي أرى "**بوارو**" مكبًا على الأرض، ومع أن السجادة كانت جميلة حقًا، فإني لم أر فيها ما يستوجب كل هذا الاهتمام، وسألته:

– أعجيبة هي؟ أجاب:

– ماذا؟ السجادة، ولكني لم أكن أتأمل السجادة، إنها جميلة حقًا، جميلة إلى درجة يستكثر معها أن يدق مسمار غليظ في وسطها. وتقدمت لأتأمل السجادة فأردف قائلا:

– كلا يا "**هاستنجز**". إن المسمار ليس هناك الآن، لكن الثقب باق.

وفوجئنا بصوت من خلفنا فاستدرت مسرعا وهب "**بوارو**" واقفا، ورأينا عند الباب فتاة ترمقنا بعينين يغشاهما الشك والريب، وكانت معتدلة القامة، جميلة الطلعة، زرقاء العينين ذات شعر فاحم مقصوص، فلما تكلمت كان صوتها رخيما شجيًا يدرك سامعه لأول وهلة أنها ليست إنجليزية. وقالت:

– أخشى ألا يستطيع خالي مقابلتكما فإنه مقعد لا يقوى على الحركة.

– هذا أمر يؤسف له، لكن لعلك تتفضلين بمساعدتي بدلا منه، إنك الآنسة "**دافيلوف**"؟

– أجل، أنا "**سونيا دافيلوف**". ما الذي تريد معرفته؟

– إني أقوم ببعض الأبحاث في الحادث المحزن الذي وقع أمس الأول... موت السيد "**جلمور ولسون**"، فما الذي تستطيعين أن تخبريني به عن هذا الحادث؟

فاتسعت حدقتا الفتاة وأجابت:

– إنه مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الشطرنج.

– إن البوليس ليس واثقا بأن الموت نتيجة السكتة القلبية يا آنسة. فأتت الفتاة بحركة تشف عن الجزع وصاحت قائلة:

– لقد كان "**إيفان**" على حق إذن!

– من هو "**إيفان**"، ولماذا تقولين إنه كان على حق؟

– إن "**إيفان**" هو الذي فتح لكما الباب، وكان قد أخبرني بأنه يعتقد أن

"جلمور ولسون" لم يمت موتا طبيعيًّا... بل سمم خطأ، وكان خالي هو المقصود بالسم.

نسيت الفتاة سالف تحفظها وشكها فاندفعت في الكلام دون روية ولا تفكير. وسألها "بوارو":

– ومن عساه يريد تسميم الدكتور "سافارونوف"؟ فهزت الفتاة رأسها قائلة:

– لا أدري. إنني في ظلام دامس وخالي يأبى أن يثق بي، وله العذر إذ إنه لا يكاد يعرفني، فلقد كان آخر عهده بي وأنا طفلة، ولم يرني بعد ذلك إلا عندما جئت للإقامة معه في "لندن"، ولكنني أعلم أنه في خوف من أمر ما؛ لأن في "روسيا" كثيرا من الجمعيات السرية، وقد سمعت ذات يوم ما حملني على الظن بأنه يخشى إحدى هذه الجمعيات. وتقدمت مني خطوة وهي تخفض صوتها قائلة:

– قل لي يا سيدي... هل سمعت بجمعية تسمى "الأربعة العظام"؟ فكاد "بوارو" يثب دهشة وعجبا وقال:

– لماذا؟ ما الذي تعرفينه عن "الأربعة العظام" يا آنسة؟

– إذن فهناك مثل هذه الهيئة... لقد سمعت عفوا إشارة إليهم فسألت خالي عن ذلك فيما بعد، ولم أر في حياتي مثل ما عراه من الرعب والهول... فقد شحب وجهه، وأخذته رعدة عنيفة، أجل يا سيدي، إنه لفي أشد الخوف منهم، وقد قتلوا ذلك الشاب الأمريكي خطأ... وغمغم "بوارو":

– "الأربعة العظام"... "الأربعة العظام" دائما... إن خالك لا يزال في خطر يا آنسة ويجب أن أنقذه، فاروي لنا حوادث تلك الليلة المشؤومة، وأريني رقعة الشطرنج والمنضدة وكيف كانا يجلسان... أريني كل شيء. قصدت الفتاة إلى جانب الغرفة وجاءت بطاولة صغيرة بديعة الصنع طُعِّم سطحها بالمربعات الفضية والسوداء كي يكون رقعة شطرنج... وقالت:

– لقد أُرسلت هذه المنضدة هدية إلى خالي منذ بضعة أسابيع، ورجاه مهديها أن يستعملها في مباراته التالية... وكانت موضوعة في وسط الغرفة، وهكذا...

وعكف "**بوارو**" على منضدة اللعب يفحصها بعناية لم أر لها معنى، وقد كان يسلك في بحثه سبيلا ما كنت لأطرقه لو أنني مكانه... فأكثر أسئلته كانت تلوح لي عديمة الجدوى، وهو لا يسأل شيئا عن أمور أراها على أكبر جانب من الأهمية واستنتجت من ذلك أن ذكر "الأربعة العظام" قد ذهب باتزانه وحاد به عن القصد، وبعد أن فرغ من فحص المنضدة والمكان طلب أن يرى قطع الشطرنج، فجاءته بها "**سونيا دافيلوف**" في صندوق، وبعد أن فحص قطعة أو قطعتين منها فحصا سطحيًا غمغم وهوشارد اللب:

– إنها مجموعة بديعة. على أنه مع ذلك لم يسأل قط عما قدم إلى اللاعبين من المرطبات ولا عمن حضر المباراة من المشاهدين... وهمهمت بتنهيدة إلى ذلك فزجرني في غلظة وقال:

– ألا يمكن بحال من الأحوال أن أرى خالك يا آنسة؟ فلاحت على وجه الفتاة ابتسامة خفيفة وأجابت:

– سيستقبلك يا سيدي... ولعلك ترى أنه من واجبي أن أرى الغرباء أولا...

وغادرت الغرفة... ثم سمعت همهمة أصوات بالغرفة المجاورة، وبعد قليل عادت وطلبت إلينا أن نتبعها، ورأينا على أريكة بالغرفة المجاورة رجلا مهيب المنظر، فقد كان الدكتور "**سافارونوف**" مديد القامة، عريض المنكبين، غليظ الحاجبين، أبيض اللحية، وإن نال منه الشحوب والهزال، وترك ما قاساه من المشاق والجوع والحرمان على وجه آثارا لا تمحى... انحنى "**بوارو**" أمامه قائلا:

– هل تسمح لي يا دكتور "**سافارونوف**" بأن أحادثك على انفراد؟ فالتفت "**سافارونوف**" إلى ابنة أخته قائلا:

– اتركينا يا "**سونيا**". وبعد انصرافها انثنى إلى "**بوارو**" قائلا:

– حسنا يا سيدي...

– لقد ورثت ثروة طائلة منذ عهد قريب يا دكتور "**سافارونوف**"، فمن الذي يرثها إذا قضيت نحبك على غير انتظار؟

– إني كتبت وصية أترك بها كل شيء لابنة أختي "**سونيا دافيلوف**"... ولكنك لا تعني...

– لست أعني شيئًا... إنك لم تر ابنة أختك منذ كانت طفلة صغيرة، فكان من السهل على أي شخص انتحال شخصيتها... فبدت على "**سافارونوف**" علامات الدهشة والارتياح ومضى "**بوارو**" يقول:

– هذا حسبنا في هذا الشأن، فما أردت إلا مجرد تحذيرك... والذي أريده الآن منك هو أن تصف لي سير لعبة الشطرنج في ذلك المساء.

– ماذا تعني بوصفها؟

– لست من هواة الشطرنج ولكني أعرف أن هناك طرقا شتى لافتتاح اللعب... فابتسم الدكتور "**سافارونوف**" قليلا وقال:

– آه... لقد فهمت ما تعنيه. إن "**ولسون**" افتتح اللعب بطريقة "**روي لوبيز**" وهي طريقة معروفة شائعة...

– كم كان قد مضى عليكما في اللعب عندما وقع الحادث؟

– لا شك في أنه كان حوالي الحركة الثالثة أو الرابعة عندما أكب "**ولسون**" بوجهه على المنضدة ميتا. ونهض "**بوارو**" متهيئا للانصراف، ثم ألقى بسؤاله الأخير في غير اكتراث كأنه سؤال تافه لا قيمة له، قال:

– هل تناول شيئا من الطعام أو الشراب؟

– أظن أنه تناول شيئا من الشراب. وكان "**إيفان**" في انتظارنا بالردهة لكي يشيعنا إلى الباب فتردد "**بوارو**" عند العتبة قليلا وسأله:

– هل تعرف من الذي يقيم بالشقة التي تحتكم؟

– هو السير "**تشارلز كنجويل**" عضو البرلمان يا سيدي... وقد استأجرها مفروشة منذ عهد قريب.

– أشكرك... فلما خرجنا انطلقت أعبر عما يجيش به صدري وقلت:

– إنك لم توفق كعادتك في هذه المقابلة يا "**بوارو**"، فقد كانت أسئلتك كلها

خارجة عن الموضوع...

ـ أتعتقد ذلك يا "**هاستنجز**"؟ إني كنت مضطرب الأعصاب حقًّا، لكن كيف كنت تسألهم لو كنت مكاني؟ ففكرت في قوله مليًّا ثم أوجزت في تفصيل خطتي وهو مصغ إليَّ فيما يشبه العناية والاهتمام، ولم أفرغ من حديثي إلا عندما أشرفنا على مسكننا، فقال "**بوارو**" وهو يتقدمني على السلم:

ـ إنها لخطة بارعة دقيقة يا "**هاستنجز**" ولكنها غير ضرورية. فهتفت ذاهلا:

ـ غير ضرورية؟ إن الرجل إذا كان قد سمم... وقال "**بوارو**" وهو يختطف رسالة موضوعة على المنضدة وينظر فيها:

ـ إنها من "**جاب**"... والأمر كما توقعت. وكانت الرسالة موجزة واضحة، فلم يعثر على أي أثر للسم... ولم يمكن تحديد سبب الوفاة... وقال "**بوارو**":

ـ هانتذا ترى أن أسئلتنا لم يكن ثمة من ضرورة لها...

ـ أكنت تظن هذه النتيجة مقدما؟

ـ إن المرء عندما يستخلص النتائج المنطقية لما بين يديه من القرائن لا يسمى هذا حدسا وتخمينا...

ـ لكن مم استخلصت هذه النتيجة؟ فوضع "**بوارو**" يده في جيبه وأخرج فرسا بيضاء... وهتفت:

ـ عجبا... لقد نسيت أن تردها إلى الدكتور "**سافارونوف**"...

ـ أنت مخطئ يا صديقي... إن الفرس الأخرى لا تزال في مكانها من جيبي الشمال إنما أخذت رفيقتها من صندوق الشطرنج الذي أباحت لي الآنسة "**دافيلوف**" فحصه.

ـ ولماذا أخذتها؟

ـ أردت أن أرى هل القطعتان متماثلتان...؟ ووضعهما على المنضدة جنبا إلى جنب فقلت:

ـ إنهما متماثلتان أتم التماثل... فقال "**بوارو**" وقد أمال رأسه قليلا:

– أعترف بأنهما تلوحان للنظر هكذا... لكن المرء لا ينبغي له أن يسلم بأمر من الأمور قبل التثبت منه... أرجو أن تحضر ميزاني الصغير. ووزن القطعتين بدقة، ثم انثنى نحوي متهللا:

– لقد كنت على حق، محال ان يخدع "**هركيول بوارو**"... ثم أسرع إلى التليفون وهتف بعد قليل:

– هذا أنت يا "**جاب**"؟ أنا "**هركيول بوارو**"... راقب الخادم "**إيفان**" ولا تدعه يفلت من يدك بأي حال من الأحوال... أجل... أجل. ألقى بالسماعة وانثنى نحوي قائلا:

– ألم تدرك الحقيقة يا "**هاستنجز**"؟ ساشرح لك ما خفي عليك... إن "**ولسون**" لم يمت بالسم بل بصدمة كهربائية، فإن قصبة معدنية رقيقة تمر بوسط إحدى هاتين الفرسين. وقد جهزت منضدة اللعب سلفا ووضعت على نقطة معينة من أرض الغرفة... فلما وضعت الفرس على أحد المربعات الفضية سرى التيار الكهربائي إلى جسم "**ولسون**" وقتله في الحال، ولم يترك أي أثر سوى الحرق الكهربائي الذي بيده... يده اليسرى؛ لأنه أعسر، وكانت تلك "المنضدة الخاصة" جهازا دقيقا عجيبا، أما المنضدة التي رأيناها فلم تكن سوى منضدة تشبهها في الظاهر فقط، وقد استبدلت بالمنضدة الأخرى عقب القتل مباشرة... أما التيار فكان مصدره الشقة السفلى، وقد أجرت مفروشة كما تعلم، لكن القاتل كان له شريك على الأقل في مسكن "**سافارونوف**"، ولا ريب في أن الفتاة من أعوان "الأربعة العظام"، وهي تعمل على وراثة أموال "**سافارونوف**"...

– و"**إيفان**"؟

– إن لديَّ شبهة قوية في أن "**إيفان**" ليس إلا رقم 4.

– ماذا تقول؟

– أجل... إن الرجل بارع براعة تفوق كل حد في التنكر وبوسعه أن يظهر في أية شخصية يشاء. فأخذت أعود بتفكيري إلى حيله السابقة والشخصيات التي

انتحلها: حارس مستشفى المجانين، وعامل الجزار، والطبيب المزيف، وكان الذي ظهر بتلك الشخصيات جميعا هو رجل واحد، ولكنه كان في كل مرة يختلف عن سواها اختلافا تامًّا... وقلت أخيرا:

– أجل... إن الوقائع تؤيد صدق نظرك، وقد كان "**سافارونوف**" يخشى مثل هذه المكيدة فكان يحاول الامتناع عن اللعب... وانثنى عني "**بوارو**" فجأة وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ثم سألني:

– أليس عندك أي كتاب في لعبة الشطرنج يا صديقي؟

– أظن أن عندي كتابا في هذا الموضوع...

وبحثت عن الكتاب حتى عثرت عليه فجئت به إلى "**بوارو**"، وتناوله مني واستقر في مقعده وراح يتصفحه باهتمام... وبعد ربع ساعة دق التليفون فتناولت السماعة... وكان المتحدث هو المفتش "**جاب**" فاخبرني بأن الخادم "**إيفان**" غادر المسكن متأبطا ربطة كبيرة، ووثب إلى سيارة أجرة كانت في انتظاره فبدأت المطاردة، وكان واضحا من حركاته أنه يريد الاختفاء عن مطارديه، ويظهر أنه ظن في النهاية أنه نجح في ذلك فقصد إلى بيت كبير خال في "**هامبستيد**"، وقد حوصر البيت. وكان "**بوارو**" يحملق إليَّ شاردا كانه لا يسمع كلمة مما أقول وفي يده كتاب الشطرنج... وقال أخيرا وهو يتلو عليَّ طريقة "**روي لوبيز**":

– ومنها ترى أن الحركة الثالثة هي التي قتلت "**ولسون**". فقلت له:

– إني لا افهم شيئًا مما تعنيه. قال:

– هب يا "**هاستنجز**" أنك سمعت وانت على هذا المقعد صوت فتح الباب الخارجي وإقفاله فما الذي تعتقده؟

– أعتقد أن شخصا قد خرج من البيت...

– أجل... لكن لكل أمر وجهان، فإما أن يكون هذا الشخص قد خرج، أو يكون قد دخل، وهما شيئان مختلفان كل الاختلاف... ولكنك إذا كنت قد فكرت في الوجه الخاطئ، فسرعان ما تجد شيئا تافها ينبهك إلى انك ضللت السبيل...

– ماذا تعني بكل هذا يا "**بوارو**"؟ فهب "**بوارو**" واقفا بنشاط عجيب وهو يقول:

– أعني أنني كنت مغفلا أحمق... هيا بنا نسرع إلى مسكن شارع "**وستمنستر**" لندركه قبل فوات الأوان.

وركبنا سيارة أجرة انطلقت بنا تطوي الأرض، و"**بوارو**" صامت عن أسئلتي لا يشفي غليلي بكلمة. رحنا نطرق باب مسكن الدكتور "**سافارونوف**" طرقا عنيفا متواصلا دون أن يجيبنا أحد، ولكنا سمعنا أنينا مكبوتا ينبعث من الداخل. ووجدنا مع بواب العمارة مفتاحًا للأبواب كلها، واستطعنا إقناعه بفتح باب المسكن بعد جهد.

وتقدمنا "**بوارو**" مسرعا إلى الغرفة الداخلية فطالعتنا رائحة الكلوروفورم، وألفينا على الأرض "**سونيا دافيلوف**" موثقة مكممة، وعلى أنفها وفمها قطعة كبيرة من القطن المبلل بالمخدر، فبادر "**بوارو**" إلى رفع القطن وإسعافها والعمل على إعادتها إلى الصواب ولم يكن ثمة أثر للدكتور "**سافارونوف**". وسألته وأنا في أشد الحيرة:

– ما معنى كل هذا؟

– معناه أنني اخترت النتيجة الخاطئة، لقد سمعتني أقول إنه من السهل تقليد شخصية "**سونيا دافيلوف**"؛ لأن خالها لم يرها منذ زمن بعيد؟

– أجل.

– لقد كان عكس ذلك صحيحا أيضا. كان من السهل كذلك تقليد شخصية خالها.

– ماذا؟

– إن "**سافارونوف**" مات فعلا في أول عهد الثورة البلشفية، والرجل الذي كان يزعم أنه نجا بجلده بعد ركوب المخاطر ومعاناة الأهوال... الرجل الذي تغيرت هيئته حتى كاد ينكره من يعرفونه... الرجل الذي نجح في إثبات حقه في ثروة طائلة...

– فهمت من هو؟

ـ رقم 4! ولم يكن عجيبا أن يعروه الوجل والخوف عندما أخبرته بأنها سمعت بعض حديثه السري عن الأربعة. وها هو قد أفلت مرة أخرى، إذ علم أن الحقيقة ستتكشف لي أخيرا، فأرسل "**إيفان**" الخادم الشريف في سباق وهمي، وخدر الفتاة، وفر هاربا بعد أن استولى فيما أرجح على معظم الودائع التي خلفتها السيدة "**جوسبوجا**".

ـ لكن من الذي حاول قتله إذن؟

ـ لم يحاول قتله أحد لكن "**ولسون**" كان ضحية كيده وتدبيره.

ـ وما الذي حدا به إلى ذلك؟

ـ لقد كان "**سافارونوف**" ثاني لاعب شطرنج في العالم كله يا صديقي، أما رقم 4 فيغلب على ظني أنه لا يعرف حتى المبادئ الأولية لهذه اللعبة، وقد حاول جهده تحاشي تلك المباراة، فلما أخفقت جهوده في ذلك أصبح "**ولسون**" مقضيا عليه بالهلاك فقد كان يجب أن يحال بأي ثمن بينه وبين اكتشاف جهل "**سافارونوف**" العظيم بأبسط مبادئ هذه اللعبة. وكان "**ولسون**" يستعملها، فدبر رقم 4 خطته لإهلاك "**ولسون**" في الحركة الثالثة قبل أن يتطور اللعب إلى ما يكشف عن جهله أمام "**ولسون**" وأمام المشاهدين.

ـ أترانا يا عزيزي "**بوارو**" نواجه مجنونا يلغ في الدماء بلا قصد ولا غاية؟ فضم "**بوارو**" حاجبيه قائلا:

ـ كانت هناك وسائل أخرى بلا ريب ولكنها دون هذه الوسيلة في قوة الإقناع، لكن رقم 4 لا يفكر كما تفكر أنت، ولا تروعه الجريمة كما تروعك. فهززت رأسي قائلا:

ـ من العسير مع ذلك أن أفهم كيف يقدم أحد من الناس على مجازفة بوسعه تجنبها. فهتف "**بوارو**" ساخرا:

ـ مجازفة؟ أين هي المجازفة؟ هل كان في مقدور "**جاب**" أن يستجلي الحقيقة؟ كلا، فلو لم يقترف رقم 4 خطأ بسيطا لما كانت هناك أية مجازفة.

– وما الخطأ الذي اقترفه؟

– لقد سها يا صديقي عن الخلايا الرمادية الصغيرة التي في رأس "**هركيول بوارو**". لقد كانت لصديقي "**بوارو**" فضائله الكثيرة، لكن فضيلة التواضع لم تكن من بينها.

- 11 -

كنا في يوم مطير قارس البرد من أيام كانون الثاني (يناير)، وقد جلست و"**بوارو**" على كثب من الموقد، وصديقي يلحظني وعلى فمه ابتسامة غامضة لم أفهم لها معنى. وقلت:

– من لي بمعرفة ما تفكر فيه!

– إن ما أفكر فيه هو أنك قلت عند مجيئك في الصيف إنك ستمكث هنا شهرين، ويظهر أنك عدلت بعد ذلك عن هذا القرار فلماذا؟

– قاتلك الله يا "**بوارو**"! أتظن أنني أتركك وحدك وأنت تكافح هيئة رهيبة كـ"الأربعة العظام"!! فأومأ "**بوارو**" قائلا:

– ما عدوت ما جال في خاطري، فنعم الصديق أنت يا "**هاستنجز**"، لكن ما عسى أن يكون رأي زوجتك؟!

– إنها ستقدر موقفي وإن لم أبعث إليها بشيء من التفاصيل، وهي آخر من يرضى بأن أتخلى عن صديق.

– أجل... إنها لوفية مثلك بعهود المودة... لكن مهمتنا قد تستغرق وقتا طويلا. قلت:

– لقد انقضت ستة أشهر ولا نزال حيث كنا يا "**بوارو**". ولعلك تعرف أن من رأيي أن نفعل شيئا.

– إنك دائما جم النشاط يا "**هاستنجز**"... لكن ماذا تريد أن نفعل على وجه الدقة والتحديد؟

– يجب أن نتخذ خطة الهجوم... فما الذي فعلناه في خلال هذه الفترة؟

– أكثر مما تظن يا صديقي... فقد كشفنا الحجب عن شخصيتي رقم 2 ورقم 3، وقد عرفنا قدرا ليس باليسير عن أساليب رقم 4 ووسائله.

وانجلى عني بعض ما كنت أجده من الضيق والحرج، فإن الأمور كما يقول "**بوارو**" ليست بالسيئة جداً. واسترسل "**بوارو**" في الحديث قائلا:

– لقد أنجزنا الكثير، ولم يكن بوسعي أن أوجه اتهاما إلى "**رايلاند**" أو السيدة "**أوليفييه**" إذ لن يصدقني أحد.

– ورقم 4؟

– لقد بدأت ألم بأساليبه ووسائله كما قلت، إنها مبارزة بيننا، وبينما لا يفتأ هو يكشف لي عن عقليته، فإني أعمل على أن يظل على تمام الجهل بعقليتي. قلت:

– ولكنهم على كل حال قد تركونا وشأننا فلم يحاولوا الفتك بك ولم ينصبوا لك شركا جديدا. أجاب "**بوارو**" مفكرا:

– كلا. وإن هذا ليثير عجبي، لا سيما وأن أمامهم طرقا لمناوأتنا. قلت:

– لعلك تعني آلة من الآلات الجهنمية. أجاب "**بوارو**" متبرما:

– كلا! إني أدعوك إلى التفكير وسأخرج للرياضة قليلا على الرغم من رداءة الطقس. وخرج "**بوارو**" فاستغرقت في مطالعة بعض الكتب وأخذتني سنة من النوم نبهني منها طرق السيدة "**بيرسون**" على الباب وقالت:

– هذه برقية لك يا كابتن. وفضضت الغلاف دون اكتراث، ولكني لم ألبث أن جمدت في مكاني كأني تمثال من الحجر... فقد كانت البرقية من "**برونسين**" وكيل أعمالي في "**أمريكا الجنوبية**"، قال فيها:

"اختفت السيدة "**هاستنجز**" أمس وأخشى أن تكون قد اختطفتها عصابة تسمى "الأربعة العظام"، وقد أبلغت البوليس تلغرافيًا لكن لم يوقف لها على أثر حتى الآن".

أومأت إلى السيدة "**بيرسون**" بمغادرة الغرفة، وجلست أقرأ الكلمات المشؤومة

المرة تلو المرة وأنا موزع القلب شارد اللب. زوجتي اختطفت! وفي يد عصابة "الأربعة العظام" الرهيبة؟ رباه ما عساي أن أفعل!

"**بوارو**"! أحتاج إلى "**بوارو**"! سيهديني في حيرتي، وسيحبط كيدهم بطريقة من الطرق... سيعود بعد بضع دقائق، ولا مناص لي من الصبر والانتظار... لكن زوجتي في قبضة "الأربعة العظام"! وطرق الباب ثانية، وأطلت السيدة "**بيرسون**" منه قائلة:

– بطاقة لك يا كابتن. جاء بها وثني صيني لا يزال في الانتظار. واختطفت منها الرسالة، وكانت موجزة واضحة:

"إذا كانت بك من رغبة في رؤية زوجتك ثانية فاذهب في الحال مع حامل هذه البطاقة، لا تترك أية رسالة لصديقك وإلا كانت العاقبة وبالا عليها". وكانت البطاقة موقعة برقم 4.

لم يتسع أمامي الوقت لإعمال الروية والفكر، ولم يكن في خاطري سوى أمر واحد... زوجتي في قبضة هؤلاء الشياطين فلا مناص لي من الذهاب مع ذلك الصيني ولو قادني إلى الهلاك. وهبطت السلم فألفيت في انتظاري صينيًا طويل القامة جامد القسمات يتكلم الإنجليزية بطلاقة. وقال:

– أعطني البطاقة من فضلك. وكنت قد توقعت هذا الطلب فقدمتها إليه، ولكنه قال:

– لقد تلقيت منذ هنيهة برقية صادرة من "**أمريكا الجنوبية**"؟ وراعتني دقة نظام الجاسوسية عند "الأربعة العظام" وإحكام خططهم ولم أر فائدة في الإنكار فقلت:

– نعم تلقيت برقية.

– هل لك أن تجيئني بها الآن؟ وعضضت على شفتي قهرا وغيظا وأنا أرتقي السلم، والتقيت بالسيدة "**بيرسون**" فخطر لي أن أسر إليها بنبإ اختطاف زوجتي لتبلغ "**بوارو**"، وأشفقت على زوجتي من العاقبة إذا فعلت ذلك.

وأخذت البرقية وأوشكت على العودة عندما أشرقت في ذهني فكرة فجائية، ألا

يمكن أن أخلف ورائي إشارة يفهمها "بوارو" دون أن يفطن أعداؤنا إلى دلالتها؟ لقد عنفني "بوارو" هذا الصباح شديدا؛ لأنه رأى بعض الكتب متناثرة على الأريكة وهو مولع بالتنسيق والنظام لا يطيق شيئا من مناظر الفوضى والاختلاط. وأسرعت إلى دولاب الكتب وأخذت منه أربعة مجلدات ألقيتها على الأرض موقنا أن عين "بوارو" الناقدة لن تخطئها من أول وهلة وأنه سيرى في ذلك أمرا غير عادي بعد المحاضرة التي ألقاها عليًّ في الصباح... وبعد ذلك هبطت إلى الطابق الأرضي فتناول الصيني البرقية مني وقرأها ثم وضعها في جيبه وأشار إليَّ بأن أتبعه.

وما زال دليلي يقطع الشوارع الضيقة الملتوية حتى وقف أمام بيت حقير عتيق وطرق الباب أربع طرقات، وفتح الباب لنا في الحال صيني آخر تنحى جانبا لكي ندخل، وكان صوت إغلاق الباب من خلفي بمثابة أني غدوت في قبضة العدو فعلا، وتخلى عني الدليل فقادني صيني آخر على سلم نزل بنا إلى قبو تشغله البالات والبراميل، وتفوح فيه رائحة حادة نفاذة كرائحة التوابل الشرقية، وشعرت من حولي بجو شرقي خالص رهيب، ثم رفع قائدي برميلين من طريقنا فانكشفت أمامي ثغرة في الجدار تشبه النفق، وتقدم الصيني وطرق أربع طرقات على أحد الجدران فدار جزء من الجدار وانفتح أمامنا باب ضيق نفذت منه، فتولتني الدهشة والذهول إذ ألفيت نفسي فيما يشبه قصرا من قصور ألف ليلة، وكانت قاعة مستطيلة منخفضة السقف تحت الأرض، كُسيت جدرانها بأستار الدمقس والحرير، وانتشرت في أرجائها الأنوار الساطعة، وتضوعت في جوها الروائح الذكية، وكانت بها خمس أو ست أرائك، وغطيت أرضها بروائع السجاد الصيني، وفي نهايتها فجوة أسدل عليها ستار، وانبعث من خلف الستار صوت يقول:

– هل جئت بضيفنا المحترم؟ فأجاب قائدي:

– إنه هنا يا صاحب السعادة.

– دع ضيفنا يدخل.

وعند ذلك رفعت الستار يد خفية، فرأيت أمامي أريكة وثيرة جلس عليها شرقي

طويل القامة، نحيف، يرتدي ثيابا عجيبة الوشي والتطريز، يدل طول أظافره على أنه من عظماء الرجال. وقال مشيرا بيده:

– تفضل بالجلوس يا كابتن "**هاستنجز**". لقد تقبلت رجائي الحضور في الحال، ويسرني أن أراك. قلت:

– من أنت؟ "**لي تشانج ين**"؟

– كلا، إنما أنا أقل خدم السيد شأنا وأهونهم قدرا، ومهمتي هي تنفيذ أوامره كما يفعل غيري من خدمه في البلدان الأخرى كـ"**أمريكا الجنوبية**" مثلا. فتقدمت نحوه وأنا أقول:

– أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟

– إنها في مكان أمين لا يهتدي إليه أحد، وهي لم يمسها سوء... حتى الآن ولعلك تلاحظ أنني أقول "حتى الآن"! فسرت في أوصالي رعدة كرعدة المقرور وأنا أواجه هذا الشيطان الباسم. وصحت به:

– ماذا تبتغون؟ نقودا؟

– بوسعي أن أؤكد لك يا عزيزي الكابتن "**هاستنجز**" أننا لا نطمع أبدًا في شيء من ثروتك المتواضعة، لقد جرت عن المقصد في هذا السؤال، وما كان صاحبك الذكي الأريب ليفكر فيه. فقلت مثقل القلب:

– أرى أنكم أردتم إيقاعي في حبائلكم، وقد جئت إلى هنا طائعا مختارا، فافعلوا بي ما تشاءون، وأطلقوا سراحها، إنها لا تعرف شيئا، ولا يمكن أن تكون ذات فائدة لكم، ولقد استخدمتموها في الظفر بي وهأنا في قبضتكم، وبذلك ينتهي شأنكم معها.

– إنك تتسرع في الحكم، وما كان الظفر بك هدفنا الأساسي، ولكننا نرجو أن نظفر عن طريقك بصديقك السيد "**هركيول بوارو**". قلت وأنا أضحك ضحكة قصيرة:

– أخشى أن يخيب أملكم. ومضى الصيني في قوله كأنه لم يسمع:

– إن ما أطلبه منك هو هذا: يجب أن تكتب إلى السيد "**هركيول بوارو**" رسالة تحمله على المبادرة إلى الحضور إلى هنا. فقلت مغضبا:

– لن أفعل شيئا كهذا.

– لن تكون عواقب رفضك حميدة، إنها قد تعني الموت. فعرتني رعدة عنيفة ولكني عقدت عزمي على التعلق بأهداب الشجاعة والعزم وقلت:

– لا فائدة من إرهابي وتهديدي، دع ذلك للجبناء الصينيين.

– إن تهديداتي حقيقية يا كابتن "**هاستنجز**"، وإني لأسالك ثانية: أتريد كتابة الرسالة؟

– لن أفعل، وفوق ذلك لن تستطيعوا قتلي وإلا انطلق البوليس في أثركم في الحال.

فصفق بيديه تصفيقا وإذا بخادمين صينيين كأنهما هبطا من السماء، وسرعان ما أوثقا ذراعي، وألقى إليهما سيدهما كلمات سريعة باللغة الصينية، فسحباني إلى نقطة بأحد أركان الغرفة الفسيحة. وانحنى أحدهما فمادت الأرض فجأة تحت قدمي، ولولا يد الرجل الآخر لهويت في الهوة المظلمة التي رأيتها تحتي، والتي تصاعد إليّ منها صوت تدفق المياه. وقال الصيني من مجلسه على الأريكة:

– هذا هو النهر. ترو في الأمر جيدا يا سيد "**هاستنجز**"، فإذا رفضت ثانية ذهبت إلى الأبدية، وهأنا أسألك لآخر مرة، هل تكتب الرسالة؟ وإني لأعترف بأن الرهبة من الموت تملكتني، وكنت واثقا بأن هذا الشيطان الصيني يعني ما يقول، فاضطرب صوتي رغماً عني وأنا أجيبه:

– ولآخر مرة أقول كلا!

أغمضت عيني ورحت أتلو صلاة قصيرة. عندما جابهت ذلك الصيني بالإصرار على الرفض والامتناع كنت موقنا بأن الكلمات التي ألقيتها إليه هي آخر ما تنفرج عنه شفتاي في هذه الحياة، ورحت أستجمع أطراف شجاعتي وعزمي لاستقبال مصيري الرهيب، ولكني كدت أصعق دهشا وعجبًا عندما طرقت سمعي ضحكة

خافتة ففتحت عيني، وصدع حارساي بإشارة من الرجل فعادا بي إلى مجلسي الأول قبالته. وقال:

– أنت رجل باسل يا كابتن "هاستنجز"، ونحن –معشر الشرقيين– نقدر البسالة والشجاعة، وإني لأصارحك بأني لم أكن أتوقع منك غير ما فعلت، وهذا يفضي بنا إلى الفصل الثاني من مأساتنا الصغيرة لقد واجهت موتك في جرأة وثبات، فهل تقوى كذلك على مواجهة موت شخص آخر؟ فسألته في صوت أجش والذعر يعصر فؤادي عصرا:

– ماذا تعني؟

– لا ريب في أنك لم تنس السيدة التي في قبضتنا. فرحت أحملق إليه معقود اللسان عاجزا عن النطق. واستطرد الشقي قائلا:

– أظن يا كابتن "هاستنجز" أنك ستكتب هذه الرسالة. تفصد جبيني عرقا، ومضى معذبي في كلامه بصوت هادئ:

– إن القلم يا كابتن في متناول يدك، وليس عليك إلا أن تكتب، فإن لم تفعل... ماتت السيدة التي تحبها. ومضى الشقي يصف تلك الوسائل الجهنمية. وقال:

– أرى أن فيما ذكرته الكفاية، خذ القلم واكتب.

– إنكم لن تجرؤوا...

– خذ القلم واكتب.

– وإذا كتبت؟

– يُخلى سبيل زوجتك إذ ترسل البرقية في الحال.

– وكيف أثق بوفائكم بوعدكم؟

– أقسم لك على ذلك بقبور أجدادي المقدسة، وفوق ذلك ما الذي أفيده من إيذائها؟ إن احتجازها سيكون قد أدى الغاية المقصودة منه.

– و"بوارو"؟

– سنعتقله في مكان أمين حتى نفرغ من عملياتنا ثم نطلق سراحه.

– أتقسم على ذلك أيضا بقبور أجدادك؟

– لقد أقسمت قسما واحدا وفيه الكفاية. ثم أملى عليَّ الرسالة التالية بعد أن نظر في طائفة من المذكرات:

"عزيزي "بوارو" – اظن أني في أثر "الأربعة العظام"، فقد جاءني رجل صيني بعد الظهر برسالة ملفقة، وشاء حسن الحظ أن أفطن إلى ذلك في الوقت المناسب فافلت منه، ثم تعقبته من حيث لا يدري، واعتقادي أنني وفقت في ذلك، وإني أوفد إليك بهذه الرسالة غلاما ذكيا فاعطه نصف كراون إذ وعدته بذلك إذا أوصل إليك الرسالة سالمة، أما أنا فاراقب البيت ولا أستطيع الابتعاد عنه، وسانتظرك حتى الساعة السادسة فإذا لم تحضر حاولت دخول البيت وحدي، إنها فرصة نادرة لا ينبغي إضاعتها، وقد لا يجدك الغلام في البيت، أما إذا وجدك فدعه يأتي بك إلى هنا في الحال، وأرجو أن تخفي شاربك الثمين حذرا من أن يكون بداخل البيت مراقب فيعرفك، كتبت هذه الرسالة في عجلة – ا. هـ".

وكان أملي يذوي مع كل كلمة، فقد صيغت الرسالة في حذق شيطاني، ولن يكون أمام "بوارو" متسع للتأمل والتفكير، وأخذ الصيني الرسالة وبعد أن قرأها أعطاها لأحد أتباعه الصامتين فاختفى من الغرفة في الحال. ثم أخذ الرجل ورقة من أوراق البرقيات وكتب عليها شيئا وقدمها إليَّ فقرأت بها "أطلقوا الطائر الأبيض في أسرع وقت" وتنفست الصعداء وقلت:

– أترسلها في الحال؟

– سترسل عندما يغدو السيد "هركيول بوارو" في قبضتي.

– ولكنك وعدت...

– إذا فشلت هذه الحيلة فقد أحتاج إلى طائرنا الأبيض... لإقناعك ببذل مجهود جديد. فهتفت وأنا أكاد أتميز من الغيظ:

– يالله! إذا... وأشار بيده المعروقة الصفراء قائلا:

– اطمئن بالا، فما أعتقد أنها تفشل، وسأبر بقسمي حالما يقع السيد **"بوارو"** في يدي.

– وإذا خدعتني...

– لقد أقسمت بأجدادي فلا تخف، والآن سأفارقك قليلا وسيأتيك الخدم بكل ما تشاء.

وجاءني أحد الخادمين الصينيين بطعام وشراب، ولكني كنت حزينا مهموما فأشرت إليه برفعهما، وسرعان ما عاد ذلك الصيني الطويل القامة المهيب الطلعة وأخذ يصدر الأوامر، فعادوا بي إلى البيت وأدخلوني غرفة بالطابق الأرضي. وكانت النوافذ مغلقة، ولكني استطعت النظر إلى الشارع من خلال خشب المصاريع، وكان على الجانب المقابل رجل رث الثياب مشعث الهيئة يشير نحو النافذة فعلمت أنه من العصابة. وقال الرجل الصيني:

– لقد وقع **"هركيول بوارو"** في الشرك، وهو يدنو الآن وليس معه غير الغلام الذي يدله على الطريق، والآن يا كابتن **"هاستنجز"** لا يزال عليك أن تقوم بدور آخر، إنه لن يدخل البيت إلا إذا ظهرت له، فيجب عند وصوله إلى الجانب المقبل أن تقف على عتبة البيت وتشير إليه بالدخول.

– ماذا؟

– يجب أن تقوم بهذا الدور وحدك، ولا تنس ثمن الفشل فإذا ساور **"هركيول بوارو"** أي شك ولم يدخل البيت، ماتت زوجتك أشنع ميتة. آه... ها هو!

ورأيت من شق المصراع صديقي يسير في الجانب الآخر من الشارع، ولقد عرفته فوراً ولو أنه رفع ياقة معطفه ولف النصف الأسفل من وجهه في كوفية كبيرة صفراء اللون، وكان يسير بجانبه غلام من صبية **"لندن"** المتشردين. ووقف **"بوارو"** ينظر إلى البيت والغلام يحادثه ويشير بيده. وكان يجب حينذاك أن أقوم بدوري، فخرجت إلى الردهة، ورُفع مزلاج الباب، وقال خصمي همسا:

– اذكر ثمن الفشل. وكنت قد وقفت على السلم أمام الباب، فأشرت إلى

"بوارو" وأسرع يعبر الشارع إليَّ قائلا:

– آه! إذن فأنت بخير يا صديقي، لقد بدأ القلق يساورني هل البيت خال؟ فأجبته بصوت حاولت جهدي أن يكون طبيعيًّا:

– أجل، ولا ريب في أن به منفذا خفيًّا إلى الخارج. تعال لنبحث عنه.

ورجعت خطوة كي يدخل وأوشك "بوارو" أن يتبعني وهو يجهل ما أعد له، وعند ذلك عراني ما يشبه الجنون، فلم أعد أرى إلا أني أقوم بدور "يهوذا" الخائن الغادر، وانطلقت أصيح:

– إلى الوراء يا "بوارو"! إلى الوراء وانج بحياتك! إنه شرك فدعك مني واذهب في الحال!

وما كدت أصيح كذلك حتى أطبقت عليَّ الأيدي كالكلاليب الحديدية، ووثب أحد الخادمين الصينيين من جانبي ليمسك "بوارو"، ورأيت "بوارو" يقفز إلى الوراء رافعا ذراعه، ثم تصاعد من حولي دخان كثيف شعرت بأنه يقتلني اختناقا... ثبت إلى الرشد في بطء وألم مضعضع الحواس، وكان أول ما طالعني هو وجه "بوارو" وكان جالسا يرمقني بنظرات يتجلى فيها الخوف والقلق، وهتف جذلا عندما رآني أنظر إليه. وقال:

– لقد عدت إلى الصواب يا صديقي المسكين! قلت بضعف:

– أين أنا؟

– في بيتك بالتأكيد! ورحت أدور بعيني في الغرفة فكان كل شيء كما عهدت، واستقر بصري على الكتب الأربعة فهتف "بوارو":

– أجل... لقد كانت فكرة رائعة منك، ومحال أن يزعم أحد بعدها أنك لست من أصحاب العقول الكبيرة.

– لقد فهمت إذن معناها؟

– أتراني غبيًّا بليد الفهم؟ بالتأكيد فهمتها، لقد أدركت أن "الأربعة العظام" قد أخذوك بوسيلة ما، فما غايتهم من ذلك؟ لم يأخذوك بالتأكيد لسواد عينيك، ولا

لأنهم يخشون بأسك ويريدون تنحيتك عن طريقهم. كلا، لقد كان من الواضح ومن البين أنهم يريدون أن يستعملوك في إيقاع "بوارو" العظيم بين براثنهم، وكنت متأهبا منذ زمن طويل لحيلة من هذا القبيل، فاتخذت أهبتي. وسرعان ما جاء الرسول... وهو صبي صغير من ابناء الشوارع، فابتلعت الطعم واسرعت معه، وكان من حسن الحظ أن تركوك تخرج أمام الباب، فقد كان أشد ما خشيته أن أضطر إلى الانتهاء منهم قبل الاهتداء إلى المكان الذي أخفوك فيه، وأن ابحث عنك بعد ذلك بحثا قد تكون عاقبته الفشل. فقلت بصوت واهن:

– أكنت تطمع في التغلب عليهم وحدك؟

– ليس في هذا من المهارة والمقدرة، فإن المرء إذا تأهب للأمر سلفا بات كل شيء سهلا ميسورا كما يقول الكشافة، وقد أسديت خدمة إلى أحد مشاهير الكيماويين منذ زمن بعيد، وهو كيماوي اشتغل كثيرا بشؤون الغازات السامة في أثناء الحرب، وصنع لي هذا الكيماوي قنابل صغيرة سهلة الحمل لا يكاد المرء يقذفها حتى يتصاعد دخان كثيف يعقبه فقد الوعي، وقد نفخت في صفارة صغيرة فهب إليَّ جماعة من أقدر رجال صديقنا المفتش "جاب" كانوا يلاحظون بيتنا من قبل مجيء الغلام بوقت طويل، واقتفوا أثري أنا والغلام إلى الحي الصيني.

– وكيف ظللت أنت محتفظا بوعيك؟

– كان ذلك من حسن الحظ أيضا... فقد شاء صديقنا رقم 4، ولست أشك قط في أنه هو الذي أملى عليك الرسالة، أن يمزح قليلا على حساب شاربي، فأتاح لي هذا إخفاء جهاز التنفس تحت الكوفيه. وصحت فجأة:

– لقد تذكرت. وعند ذلك مثل في خاطري ذلك الهول الذي نسيته إلى حين... زوجتي... وتهافت وأنا أئن أنينا موجعا، فلما انتبهت رأيت "بوارو" يسكب بين فكي قليلا من الشراب. وقال عندما رآني أفتح عيني:

– ماذا أصابك يا صديقي؟ فقصصت عليه القصة كلها وأنا أرتجف فرقا. وهتف "بوارو":

– وا رحمتاه لك يا صديقي! شد ما تألمت! لكن لا تحزن ولا تبتئس فإن كل شيء على ما يرام.

– أتعني أنك سوف تهتدي إليها؟ ولكنها في "**أمريكا الجنوبية**" وستكون في عداد الهالكين قبل أن نصل إليها، ولا يعلم إلا الله ما تلقى في موتها من صنوف التنكيل والتعذيب.

– كلا... كلا... إنها بمأمن من كل سوء ولم تكن في قبضتهم لحظة واحدة.

– ولكني تلقيت برقية من وكيلي "**برونسين**"!

– قد تكون تلقيت برقية من "**أمريكا الجنوبية**" بتوقيع "**برونسين**" ولكنها مزورة، ألم يخطر لك قط أن عصابة من هذا الطراز تتغلغل فروعها في جميع أنحاء العالم قد تضربنا في شخص تلك الفتاة الصغيرة التي تهيم بها حبًّا؟

– كلا... لم يخطر هذا ببالي قط.

– أما أنا فقد فكرت فيه، ولئن كنت أمسكت عن التحدث إليك في شأنه حتى لا أثير قلقك بلا موجب، فإني اتخذت الإجراءات المناسبة، وكانت رسائل زوجتك كلها تبدو كأنها صادرة من المزرعة، لكن زوجتك في مخبإٍ أمين منذ أكثر من ثلاثة أشهر. فنظرت إليه طويلا ثم قلت:

– أواثق بذلك؟

– كل الثقة، لقد كانوا يعذبونك بكذبة!

- 12 -

بعثت في نفسي الشعور بالخيبة والقنوط نتائج هجوم "**بوارو**" بالقنبلة على بيت الحي الصيني. فقد فر زعيم تلك العصابة، ولم يجد رجال المفتش "**جاب**" عندما هرعوا استجابة لصفير "**بوارو**" سوى أربعة من الصينيين غائبين عن الصواب بالردهة، ولم يكن بينهم الرجل الذي هددني بالموت، وقد تذكرت فيما بعد أنه عندما أرغمت على الظهور بباب البيت لاستدراج "**بوارو**"، كان ذلك الرجل

حريصا على أن يكون في المؤخرة دائما فلا ريب في أنه كان بعيدا عن نطاق قنبلة الغاز.

وما وافى اليوم التالي حتى تعافيت تماما من آثار الغاز، فذهبنا إلى ذلك البيت في الحي الصيني بمعاونة المفتش "جاب"، ولم نجد به شيئا ذا قيمة سوى المذكرات التي نظر فيها الرجل الصيني وهو يملي عليَّ الرسالة إلى "بوارو"، وكانت تحوي تفصيلا دقيقا لحياة كل منا وطباعه وأخلاقه ونقط الضعف التي فيه. وابتهج "بوارو" بهذه المذكرات ابتهاجا صبيانيًّا دون أن أرى فيها ما يقدم أو يؤخر في قضيتنا، وصارحت "بوارو" بهذا فقلت:

– إنك لتعرف الآن يا عزيزي "بوارو" رأي العدو فينا. ويظهر أنه يقدر قوتك العقلية تقديرا مبالغا فيه، كما يحط من قدر عقليتي إلى درجة سخيفة، ولكني لا أرى كيف يفيدنا العلم بذلك قليلا أو كثيرا.

– ألا ترى فائدة ذلك يا "هاستنجز"؟ لا ريب أن في مقدورنا الآن الاحتياط من بعض طرقهم في الهجوم، فنحن نعرف يا صديقي أنه يجب عليك التروي والتبصر قبل الإقدام، كما نعرف أنه يجب عليك إذا لقيت فتاة حمراء الشعر في مأزق من المآزق أن تنظر إليها بعين الريبة والشك.

وكان قد جاء بتلك المذكرات أنني طائش متسرع، وأنني سريع الاستجابة لمحاسن الفتيات ذوات الشعر الأحمر، ورأيت في تلميح "بوارو" منافاة لحسن الذوق، لكن كان بوسعي لحسن الحظ أن أجيب على الضربة بمثلها فقلت:

– وأنت؟ ألا تنوي أن تعالج "غرورك المتعجرف" وتحد من "ولعك الجنوني بالترتيب والنظام"؟ وقال:

– إنهم يخدعون أنفسهم في بعض الشؤون يا "هاستنجز"، وهذا حسن. سيعرفون خطأهم في الوقت المناسب، على أننا قد عرفنا شيئا، وإن لم نعرف الكفاية، فإن علينا أن نناضل أربعة خصوم، أي أربع شخصيات مختلفة. ولم نحتك برقم 1 شخصيًّا ولكننا شاهدنا آثار عقله، وقد بدأت أفهم هذا العقل فهما

جيدا، إنه عقل شرقي بعيد الغور شديد الدهاء، وكل خطة أو مكيدة التقينا بها كانت صادرة عن عقل "لي تشانغ ين". أما رقم 2 ورقم 3 فمن العظمة وسمو المنزلة الاجتماعية بحيث لا ترقى إليهما هجماتنا. بيد أن سمو مركزهما الاجتماعي إذا كان وقاية لهما منا فإنه وقاية لنا منهما كذلك، إذ يفرض عليهما التحفظ في حركاتهما، وهكذا نصل إلى آخر عضو بالعصابة... إلى الرجل الذي يطلق عليه رقم 4. وتغير صوت "بوارو" قليلا كما كان يتغيّر دائما عند ذكر رقم 4. ومضى قائلا:

– إن رقم 4 إنما ينجح بالغموض والخفاء، فلا يدري أحد من هو، وليس يدري أحد ماهيته، كم مرة رأيناه، أنت وأنا، خمس مرات! لكن هل يستطيع أحدنا أن يقول صادقا إن بوسعه معرفته إذا لقيه؟

واضطررت إلى أن أهز رأسي نفيًا عندما استعرضت في ذهني أولئك الرجال الخمسة الذين كانوا مختلفين أشد الاختلاف ولكنهم مع ذلك شخص واحد. وقلت في يأس:

– كلا. إننا لم نعرف شيئا قط نستطيع الاهتداء به. فابتسم "بوارو" قائلا:

– لا تستسلم يا صديقي لليأس والقنوط نحن نعرف أنه رجل معتدل القامة، متوسط لون البشرة أو فاتح اللون. فلو كان فارع الطول أسمر البشرة لما أتيح له بحال أن يبدو في هيئة ذلك الطبيب الربع القامة الأشقر البشرة... وكان من السهل بالتأكيد أن يزيد قامته اثنين ونصف سنتيمتر أو خمسة سنتيمترات ليبدو في هيئة الخادم "جيمس" أو الأستاذ الروسي... ويجب كذلك أن يكون ذا أنف قصير مستقيم، فمن الممكن دائما تكبير الأنف الصغير بوسائل المكياج البارعة، لكن من المحال تصغير الأنف الكبير... ويجب أيضا أن يكون شابًا في مقتبل العمر، فهو رجل يتراوح عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، متوسط الطول واللون، متمكن من فن التنكر ليس في فكيه غير القليل من أسنانه الطبيعية.

– لماذا؟

– هذا أمر لا ريب فيه يا " **هاستنجز** " ، فقد كانت أسنانه في حارس السجن مهشمة متغيرة اللون، وفي "**باريس**" مستوية بيضاء، وفي الطبيب بارزة قليلا، وفي "**سافارونوف**" مفرطة الطول محددة الأطراف... ولا يغيّر من منظر الوجه مثل طقم مختلف الأسنان الصناعية، فهل ترى إلام يفضي بنا كل هذا؟

– لا أفهم ما تعنيه تماما.

– إنهم يقولون إن مهنة المرء مكتوبة في وجهه، أفلا ترى أن هذا الرجل ممثل أو كان كذلك في وقت من الأوقات؟

– ممثل؟ أتعتقد إذن أنك تستطيع الاهتداء إلى شخصه عن طريق صلته بالمسرح؟

– إنك شديد الذكاء يا "**هاستنجز**" . فقلت بفتور:

– كان من الخير لو أسرعت هذه الفكرة إلينا فقد أضعنا وقتا طويلا.

– أنت مخطئ يا صديقي، فما أضعنا من الوقت أكثر مما كانت تتطلبه الضرورة، فمنذ عدة أشهر كان وكلائي عاكفين على هذه المهمة، ومن هؤلاء الوكلاء "**جوزيف آرونز**" ، هل تذكره؟ وقد وضعوا لي قائمة بالرجال الذين تتوفر فيهم صفات صاحبنا، وهم فوق ذلك ممثلون هجروا التمثيل في خلال السنين الثلاث الأخيرة. فقلت وقد ازداد اهتمامي:

– حسنا؟

– كانت القائمة بطبيعة الحال طويلة ضافية الذيول، فما زلنا في فحص وتصفية حتى خرجنا منها بأربعة أشخاص يحتمل أن يكون صاحبنا أحدهم. وألقى إليَّ بورقة أخذت أتلو ما فيها بصوت مسموع:

– "**أرنست لوتريل**" ، ابن قسيس في الشمال، كانت فيه دائما ناحية من نواحي النقص الأخلاقي. طرد من المدرسة العامة. اعتلى خشبة المسرح وهو في الثالثة والعشرين. يدمن المخدرات. المعتقد أنه رحل إلى "**أستراليا**" منذ أربع سنين. لا يعرف عنه شيء منذ أن غادر "**إنجلترا**" . السن 32، الطول مائة وستة وسبعون سنتيمترًا تقريبًا. حليق الوجه، أسمر الشعر، مستقيم الأنف، أشقر البشرة، رمادي

العينين. "**جون سنت مور**" اسم مستعار، الاسم الحقيقي غير معروف، يعتقد أنه نشأ من سوقة "**لندن**"، اشتغل بالتمثيل منذ طفولته، كان يمثل الشخصيات الشهيرة بصالات الموسيقى، انقطعت أخباره منذ ثلاث سنين، العمر حوالي 23 سنة. الطول مائة وخمسة وسبعون سنتيمتراً. نحيف البنية، أزرق العينين، أشقر الشعر.

"**أوستن لي**"، اسم مستعار، الاسم الحقيقي "**أوستن فولي**"، من أسرة كريمة، كان ميالا من صغره إلى التمثيل وعرف بهذا الميل في "**أكسفورد**"، أصيب بتهدم في أعصابه على أثر حادث اصطدام سيارة منذ ثلاث سنين ونصف، ولم يظهر على المسرح منذ ذلك الحين، ليس ثمة أي أثر يستدل به على مقره الحالي، السن 35، الطول مائة وأربعة وسبعون سنتيمتراً تقريباً. البشرة شقراء، العينان زرقاوان، الشعر أسمر.

"**كلود داريل**" المعتقد أن هذا هو اسمه الحقيقي يحيط بأصله الغموض، كان يمثل في صالات الموسيقى والروايات الاستعراضية، ليس له أصدقاء مقربون فيما يظهر، كان في "**الصين**" في سنة 1919، عاد عن طريق "**أمريكا**"، قام بتمثيل أدوار قليلة في "**نيويورك**"، انقطع عن المسرح ذات ليلة ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك، يقول بوليس "**نيويورك**" إنه أغرب حادث اختفاء، السن حوالي 33، الشعر أسمر، البشرة شقراء، العينان رماديتان، الطول مائة وستة وسبعون سنتيمتراً. وقلت وأنا ألقي الورقة:

– طريف جداً، هذه إذن نتيجة بحث استغرق عدة أشهر هذه الأسماء الأربعة، وأي هؤلاء الأشخاص تميل إلى الشك فيه؟ فأشار "**بوارو**" إشارة بليغة المغزى وقال:

– هذا سؤال لا يزال مفتوحا يا صديقي، على أني أوجه نظرك إلى أن "**كلود داريل**" كان في "**الصين**" و"**أمريكا**"... وهي حقيقة قد لا تخلو من معنى، لكن لا ينبغي لنا أن تحملنا هذه النقطة على التحيز لرأي معين، فقد تكون مجرد مصادفة. وسألته بشوق:

– وما الخطوة التالية؟

– إن الأمور تسير في مجراها فعلا، وستنشر كل يوم بالصحف إعلانات صيغت كلماتها في عناية وتدقيق تطلب إلى أصدقاء وأهل هذا أو ذاك من الرجال الأربعة الاتصال بمحامي في مكتبه. وقد يصلنا اليوم... آه! إن التليفون يدق! وقد يكون قد جد شيء. وعبرت الغرفة ورفعت سماعة التليفون قائلا:

– نعم. هنا مسكن السيد "**بوارو**". أنا الكابتن "**هاستنجز**" هذا أنت يا سيد "**ماكنيل**"؟ (و"**ماكنيل**" و"**هود جسون**" هما محاميا "**بوارو**") سأخبره. أجل سيحضر في الحال وأعدت السماعة إلى مكانها وانثنيت إلى "**بوارو**" وأنا في أشد حالات الانفعال. وقلت:

– هناك امرأة يا "**بوارو**". صديقة "**كلود داريل**". الآنسة "**فلوسي مونرو**". ويطلب "**ماكنيل**" أن توافيه.

وسرعان ما استقللنا سيارة أجرة أسرعت بنا إلى مكتب "**ماكنيل**"، وأدخلنا إلى غرفته الخاصة، وكانت تجلس قبالة المحامي سيدة بادية الشحوب والذبول، وقد تجاوزت ريعان الشباب، وهي ذات شعر أصفر صفرة غير طبيعية يتهدل غزيرا على أذنيها، كما أنها بالغت في تكحيل عينيها، وصبغ شفتيها، وهتف "**ماكنيل**":

– ها هو السيد "**بوارو**"! أقدم إليك يا سيد "**بوارو**" الآنسة... "**مونرو**" التي تفضلت بالحضور لإعطائنا بعض المعلومات. فتقدم "**بوارو**" في حفاوة بالغة وصافح السيدة بحرارة وهو يقول:

– إن الآنسة تبدو كالزهرة الغضة اليانعة في هذا المكتب العتيق القاحل. ولم يضع هذا الثناء الصارخ هباء فقد تضرج وجه الآنسة "**مونرو**" بالاحمرار وقالت متلعثمة:

– لله أنت يا سيد "**بوارو**"! إني لأعرفكم معشر الفرنسيين.

– إننا لسنا جامدين أمام الجمال كالإنجليز يا آنسة، وما أعني بذلك أنني فرنسي، فإني بلجيكي كما ترين. قالت:

– لقد رأيت ذلك. كانت الأمور تتقدم تقدما رائعا حقًّا كما قال "**بوارو**".

واستطرد قائلا:

- وهكذا تستطيعين أن تنبئينا بشيء عن السيد **"كلود داريل"**. أجابت الآنسة:

- لقد كنت على اتصال وثيق بالسيد **"داريل"** في وقت من الأوقات، ورأيت إعلانك وأنا أغادر أحد الحوانيت، ولما كان وقتي ملكا لي فقد قلت لنفسي ها هم محامون يسألون عن **"كلود"** المسكين، ولعل بين أيديهم ثروة يريدون معرفة وارثها، فمن الخير أن أذهب إليهم في الحال. فنهض السيد **"ماكنيل"** قائلا:

- أتحب أن أترككم يا سيد **"بوارو"** حتى تفرغوا من هذا الحديث؟

- إنك لكريم الخلق، لكن ابق، فقد خطرت لي فكرة حسنة، إن موعد الغداء يقترب، ولعل الآنسة تشرفني بالذهاب معي لتناول الطعام؟

وومضت عينا الآنسة **"مونرو"**، فأدركت أنها سيئة الحال وأنها لا تنظر باستخفاف إلى أية فرصة تتيح لها أكلة شهية، وبعد بضع دقائق كنا نجلس إلى مائدة حافلة بأطيب الألوان في مطعم من أعظم مطاعم **"لندن"**، وراح **"بوارو"** يملأ كأس الآنسة بالشراب الفاخر كلما فرغت، ثم أخذ يتطرق بالتدريج إلى أحب الموضوعات إلى نفسه فقال:

- مسكين السيد **"داريل"**، شد ما أتمنى لو كان معنا. وتنهدت الآنسة **"مونرو"** قائلة:

- أجل... مسكين... إني لأعجب ما الذي آل إليه أمره.

- أغاب عنك طويلا؟

- منذ دهر كامل، لم أره منذ نشوب الحرب، لقد كان **"كلود"** فتى غريب الأطوار، شديد التكتم والحذر، لا ينطق بكلمة واحدة عن نفسه... لكن هذا لا يستغرب إذا كان وارثا مفقودا، أهو لقب من ألقاب النبل يا سيد **"بوارو"**؟ فأجاب **"بوارو"** دون أن يحمر وجهه خجلا من الكذب:

- بل هي ثروة فقط وأسفاه، لكن الأمر قد يستدعي التحقق من شخصيته، ولهذا كنا نحتاج إلى من يعرفه حق المعرفة.

– لا أرى ضيرا في مصارحتك بما كان بيني وبينه يا سيد "**بوارو**"، فإنك شهم كريم الخلق، تعرف كيف تدعو سيدة إلى الطعام، ولقد كنت و"**كلود**" في ريعان الشباب، فماذا كان ينتظر منا؟ وإني لا أزال أكن له عطفا ورفقا، ولو أنه لم يعاملني كما يجب أن تعامل السيدات، إن الرجال جميعا كذلك إذا كانت المسألة خاصة بالنقود. فقال "**بوارو**" محتجًا وهو يملأ كاسها من جديد:

– كلا... يا آنسة... لا تقولي هذا. هل تستطيعين أن تصفي لي السيد "**داريل**"؟ فأجابت الآنسة "**فلوسي مونرو**" في مثل لهجة الحالم:

– لم يكن رائع المنظر، فهو ليس بالطويل ولا القصير، ولكنه معتدل القامة، رشيق الهيئة، يمتزج في عينيه اللونان الأزرق والرمادي، وشعره أدنى إلى الشقرة فيما أظن، ولكنه كان فنانا، إني لم أر في حياتي من يدانيه في براعته وحذقه، وقد كان خليقا بأن يتسنم ذروة الشهرة والمجد لولا الحسد.

ورحنا نستمع بكل ما أوتينا من الصبر إلى قصة طويلة عن حادث من حوادث الغيرة والتنافس بين الممثلين. ثم استدرجها "**بوارو**" ثانية إلى موضوع "**داريل**" برفق ولباقة، وقال:

– إننا نجد لذة عظيمة في كل ما يسعك أن تحدثينا به عن السيد "**داريل**" يا آنسة، والنساء دقيقات الملاحظة، وهن يرين أشياء صغيرة تافهة لا يفطن إليها الرجال، وقد رأيت امرأة تتعرف إلى رجل من بين اثني عشر رجلا، فهل تعرفين لماذا؟ لأنها لاحظت أن من عادته أن يربت أنفه إذا اضطربت أعصابه، أكان في وسع أي رجل أن يلاحظ أمرا دقيقا كهذا؟ فهتفت الآنسة "**مونرو**":

– أجل إنا لنلاحظ ما تخطئه عيون الرجال، وإني لأذكر الآن أنه كان من عادة "**كلود**" كلما جلس إلى المائدة أن يعبث بالخبز، فيأخذ قطعة منه بين أصابعه، ويلتقط بها الفتات المتناثر أمامه.

– أليس هذا ما قلت؟ إن المرأة لعجيبة الملاحظة، هل تحدثت إليه بشأن هذه العادة التافهة يا آنسة؟

– كلا يا سيد "**بوارو**"، فإن الرجال لا يروقهم أن يلاحظ عليهم أحد شيئا.

ورأيت أصابعه تضطرب وهو يتناول كاسه، وقال:

– وهناك كذلك الخط كوسيلة من وسائل تحقيق الشخصية ولا ريب في أنك تحتفظين بشيء من رسائل السيد "**داريل**" إليك؟

– لم يكن من عادته أن يكتب شيئا قط ولم يسطر إليّ خطًا واحدا في حياته.

قال "**بوارو**" :

– هذا أمر يؤسف له.

– لكن عندي مع ذلك صورة فوتوغرافية له لعلك تجد فيها فائدة. فكاد "**بوارو**" يثب عن مقعده ابتهاجا وهو يهتف:

– أحقًا أن عندك صورة فوتوغرافية له؟

– صورة قديمة... منذ ثماني سنوات على الأقل.

– لا يهم قِدَمها ولا تحوُّل لونها! هل تسمحين لي بالنظر إلى هذه الصورة يا آنسة؟

– بلا ريب. ونهضت الآنسة "**مونرو**" وهي تقول:

– يجب أن أنصرف. يسرني أنني التقيت بك وبصديقك يا سيد "**بوارو**".

– والصورة الفوتوغرافية... متى أراها؟

– سأبحث عنها الليلة، وأظن أنني أعرف أين أجدها وسأرسلها إليك في الحال.

– ألف شكر يا آنسة. إنك لكريمة رقيقة الشمائل، وأرجو أن نتمكن من تناول الطعام معا مرة أخرى.

– عندما تشاء... إنني طوع أمرك.

– لكن عنوانك ليس عندي. فأخرجت من حقيبتها بطاقة أعطته إياها في عظمة، وكانت بطاقة قذرة محي العنوان المطبوع عليها وكتب في مكانه عنوان جديد بالقلم الرصاص.

ثم ودعنا الآنسة و"**بوارو**" يكثر من الإشارات والانحناء وسرعان ما قصد "**بوارو**" إلى التليفون وطلب وكالة لأعمال البوليس السري الخاصة، وكانت تعليماته إليها واضحة محددة. فقد كان يجب أن يذهب رجلان إلى العنوان الذي أملاه للسهر

على سلامة الآنسة "**مونرو**" واقتفاء أثرها أينما ذهبت، وقلت لـ"**بوارو**" عندما فرغ من ذلك:

– أترى هذا ضروريًا حقًا يا "**بوارو**"؟

– قد يكون هكذا، فلا ريب أننا تحت رقابة لا تغفل عنا طرفة عين، وسيعرفون مع من تناولنا طعام الغداء اليوم، ومن الممكن أن يشتم رقم 4 من ذلك رائحة الخطر، وما إن انقضت عشرون دقيقة حتى دق التليفون ثانية فتناولت السماعة وسمعت صوتا حادًا يقول:

– هل هذا هو السيد "**بوارو**"؟ هنا مستشفى "**سنت جيمس**"، لقد جيء إلى هنا بسيدة منذ عشر دقائق، ضحية حادث في الطريق، الآنسة "**فلوسي مونرو**"، وهي تلح في طلب السيد "**بوارو**"، ويجب أن يأتي في الحال فإنها لا يمكن أن تعيش طويلا. وأعدت الحديث على "**بوارو**"، فامتقع وجهه امتقاعا شديدا وهو يقول:

– أسرع يا "**هاستنجز**" يجب أن نسابق الريح.

وبعد عشر دقائق كنا في طريقنا إلى عنبر المصابين بالمستشفى، لكن "**بوارو**" رأى في وجه الممرضة التي استقبلتنا بباب العنبر ما يغني عن السؤال، وأخبرتنا الممرضة بأن المرأة المسكينة قضت نحبها منذ ست دقائق، فلما رأت "**بوارو**" جامدا في مكانه أخطأت في فهم ما يعتمل في نفسه وراحت تواسيه قائلة:

– إنها لم تقاس ألما، وقد ظلت غائبة عن الصواب حتى النهاية، ولقد صدمتها سيارة كما تعلم، ولم يقف السائق الذي صدمها، وإنه لنذل أثيم، ولكني أرجو أن يكون بعض المارة قد أخذوا رقم السيارة. فقال "**بوارو**" بصوت خفيض:

– إن الأقدار تناصبنا العداء.

– أتحبان أن ترياها؟ وقادتنا الممرضة إلى داخل العنبر فرأينا "**فلوسي مونرو**" وقد ارتسمت على شفتيها المصبوغتين ابتسامة صغيرة... وغمغم "**بوارو**":

– أجل. إن الأقدار تناصبنا العداء، لكن... هل هي الأقدار حقًا؟ وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة فرفع رأسه هاتفا:

– أقسم لك يا صديقي أمام جثة هذه المرأة المسكينة أنني لن أعرف الرحمة عندما تحين الساعة!

– ماذا تعني؟ لكن "بوارو" انثنى إلى الممرضة وراح يلقي عليها الأسئلة تباعا، ثم جيء له بقائمة الأشياء التي وجدت في حقيبتها فما كاد يتفحصها حتى هتف قائلا:

– أترى يا "هاستنجز"؟ ليس هنا أي أثر لمفتاح السقاطة الذي كانت تحمله بلا ريب، والذي أخذه من حقيبتها أول شخص انحنى فوقها، كلا، لقد قتلت عمدا، ولكننا قد نصل قبل فوات الوقت، وقد لا يعثر في الحال على ما يبحث عنه.

وبعد لحظة قصيرة كنا أمام البيت الذي أعطتنا عنوانه "فلوسي مونرو"، وهو بيت حقير في حي قذر، وانقضى شيء من الوقت قبل أن يؤذن لنا بدخول شقة الآنسة "مونرو"، ولكننا كنا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع أحد الخروج من البيت ونحن أمامه. ودخلنا أخيرا، فكانت جميع المظاهر تنبئ بأن شخصا سوانا قد سبقنا، إذ كانت محتويات الأدراج والدواليب مبعثرة في أرض المسكن، والأقفال محطمة، والمناضد مقلوبة. وأخذ "بوارو" يبحث بين الحطام فلم يلبث أن انتصب هاتفا، وكان بيده إطار عتيق لصورة فوتوغرافية... ولكنه كان خاليا... وقلبه في بطء، وكانت على ظهره بطاقة صغيرة... كتب عليها الثمن... وقلت:

– إن ثمنه أربعة شلنات.

– انظر جيدا يا "هاستنجز"، هذه بطاقة جديدة نظيفة ألصقها بالإطار الرجل الذي أخذ الصورة... الرجل الذي كان هنا قبلنا والذي كان يعرف أننا سنحضر فترك هذه لنا... "كلود داريل"، أو رقم 4.

-13-

تبدلت أطوار "بوارو" بعد موت الآنسة "فلوسي مونرو" الأليم، فبدا لي أن ثقته بنفسه أدركها الوهن والتصدع، وغدا دائم الاكتئاب والوجوم، يتجنب ذكر "الأربعة العظام" ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويقبل على مهامه العادية في حميته

القديمة، ولكني كنت أعلم مع ذلك أنه يعمل سرًّا في المشكلة الكبرى؛ إذ كانت جماعة من السلافيين ذوي الهيئات العجيبة لا يفتأون يختلفون إلينا، وإن لم يفضِ إليَّ بأي إيضاح عن هذا النشاط الغامض، وأدركت أنه عاكف على وضع خطة جديدة للدفاع أو الهجوم مستعينا بأولئك الأجانب ذوي الهيئات المنفرة.

وكثيرا ما كان يعيد عبارة واحدة مرارا وتكرارا: "إن أكبر خطإ تقترفه هو الاستهانة بقوة عدوك، اذكر هذا يا صديقي" وأيقنت أن هذه هي المهواة التي يعمل جاهدا على تجنب الوقوع فيها. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى قال لي في صباح أحد الأيام:

– سنذهب اليوم لمقابلة وزير الداخلية فتجمل.

– إن هذا لعجيب. هل استدعاك ليعهد إليك ببعض المهام؟

– بل المقابلة إجابة لطلبي، وإنك لتعلم أن رئيس وزراء "**فرنسا**" السيد "**ديجاردو**" في "**لندن**" الآن، وقد دبر وزير الداخلية أن يشهد اجتماعنا الصغير هذا الصباح. واستقبلنا "**الرايت**" أو "**نورابل سدني كروذر**" وزير الداخلية بما اشتهر به من الرقة والظرف، وكان يقف وراءه على مقربة من الموقد رجل طويل القامة، نحيف البنية، له لحية سوداء مدببة، ووجه يشف عن الحساسية وسرعة التأثر، وقال له "**كروذر**":

– اسمح لي يا سيد "**ديجاردو**" بأن أقدم إليك السيد "**هركيول بوارو**" الذي قد تكون سمعت به. فانحنى رئيس وزراء "**فرنسا**" مصافحا وقال:

– لقد سمعت حقًّا بالسيد "**بوارو**"، ومن ذا الذي لم يسمع به؟ وقال "**بوارو**" وهو ينحني وقد تألق وجهه سرورا:

– إنك لكريم الأخلاق يا سيدي. وانبعث من ركن قصي بجانب أحد دواليب الكتب صوت يقول:

– ألا توجد كلمة تحية لصديق قديم؟ وكان المتكلم صديقنا القديم السيد "**أنجلز**"، فصافحه "**بوارو**" في حرارة وشوق، وقال "**كروذر**":

– والآن يا سيد "**بوارو**" ها نحن في خدمتك، وقد فهمت أنك تريد الإفضاء إلينا ببيان عظيم الخطورة.

– إن الأمر كذلك يا سيدي، ففي العالم اليوم هيئة إجرامية واسعة النطاق، يهيمن عليها أربعة أشخاص يدعون "الأربعة العظام"، ورقم 1 صيني يسمى "**لي تشانج ين**" ورقم 2 ثري أمريكي كثير الملايين هو "**أيب رايلاند**"، ورقم 3 سيدة فرنسية، أما رقم 4 فلديَّ كل ما يحملني على الاعتقاد بأنه ممثل إنجليزي مغمور يسمى "**كلود داريل**"، وقد تحالف هؤلاء الأربعة على هدم النظام الاجتماعي الحاضر، ويستبدلون به نظامًا فوضويًا يسيطرون عليه سيطرة دكتاتورية. فغمغم رئيس وزراء "**فرنسا**":

– من العسير تصديق هذا... أيشترك "**رايلاند**" في شيء من هذا القبيل؟ لا ريب في أن الفكرة محض وهم وخيال...

– أعرني سمعك يا سيدي ريثما أقص عليك بعض أعمال "الأربعة العظام"... وكانت قصة "**بوارو**" رائعة تخلب لب السامع وهو يروي حوادث مغامراتنا ونجاتنا ولما فرغ من ذلك نظر السيد "**ديجاردو**" إلى السيد "**كروذر**" دون أن يتكلم فقال الوزير:

– أجل يا سيد "**ديجاردو**"... أظن أنه لا مناص لنا من الاعتراف بوجود "الأربعة العظام"... ولقد سخر رجال "**سكوتلانديارد**" من ذلك أول الأمر، ولكنهم اضطروا أخيرا إلى التسليم بأن السيد "**بوارو**" على صواب في الكثير من آرائه... وموضع التساؤل هو المدى الذي تمتد إليه أغراض هذه العصابة... وإني لأميل إلى الظن بأن السيد "**بوارو**" يبالغ في ذلك بعض المبالغة... فبسط أمامهم "**بوارو**" عشر نقط بارزة واضحة لست في حل حتى الآن من إذاعتها على القراء، ولكنها تناولت ما حل بالغواصات من النكبات في شهر معين، كما تناولت حوادث الطائرات والهبوط الإجباري... وكانت هذه الأحداث جميعها من تدبير "الأربعة العظام" فيما قال "**بوارو**"، وهي دليل قاطع على أنهم يملكون أسرارا علمية شتى

يجهلها العالم أجمع. وساله رئيس وزراء "**فرنسا**" :

– لقد قلت إن العضو الثالث بالعصابة سيدة فرنسية... فهل تعرف شيئا عن اسمها؟

– إنه اسم مشهور يا سيدي تحيط به هالة من المجد والشرف... فليس رقم 3 إلا السيدة "**أوليفييه**" الذائعة الصيت. وما إن تفوه صاحبي باسم العالمة الفرنسية ذات الشهرة العالمية حتى قفز رئيس الوزراء الفرنسي عن مقعده مهتاجا محتقن الوجه وهو يهتف :

– السيدة "**أوليفييه**"... محال...! هذا سخف... إنها إهانة صارخة!! وهز "**بوارو**" رأسه في دعة دون أن يتكلم... وراح "**ديجاردو**" يرنو إليه ذاهلا مستغرقا، ثم انجلت عنه سورة الغضب وقال :

– إن السيد "**بوارو**" رجل عظيم، لكن الرجل العظيم له أوهامه وتخيلاته، وهو يلتمس المؤامرات الموهومة في الأوساط الرفيعة... ألا تتفق معي يا سيد "**كروذر**"؟

ولاذ وزير الداخلية بالصمت هنيهة ثم قال :

– لست أدري في الحق... لقد كنت ولا أزال عظيم الثقة بصدق نظر السيد "**بوارو**"، لكن ما يقوله عسير التصديق... وعاد السيد "**ديجاردو**" قائلا :

– ثم "**لي تشانج ين**" هذا... من الذي سمع باسمه؟ فقال السيد "**أنجلز**" على غير انتظار :

– أنا... وشخص إليه رئيس الوزراء الفرنسي ببصره، فأجابه السيد "**إنجلز**" على نظراته الثابتة بمثلها.. وقال وزير الداخلية :

– إن السيد "**أنجلز**" هو أعظم حجة عندنا في الأحوال الداخلية بـ"**الصين**"... فقال السيد "**ديجاردو**" :

– هل سمعت بخبر "**لي تشانج ين**" هذا؟

– لقد كنت أعتقد أنني أنا الرجل الوحيد الذي سمع به في "**إنجلترا**" حتى زارني السيد "**بوارو**"... لا تخدع نفسك يا سيد "**ديجاردو**"، فليس في "**الصين**" اليوم سوى رجل واحد يعمل له حساب... هو "**لي تشانج ين**"... ولعله –ولا

أجزم بذلك- صاحب أكبر عقلية في العالم اليوم... وجلس السيد "**ديجاردو**" كأنما أذهله ما سمع... ثم استرد ثباته وقال:

- قد يكون شيء من الصواب فيما تقول يا سيد "**بوارو**"... أما فيما يختص بالسيدة "**أوليفييه**" فإنك مخطئ أشد الخطإ... إنها ابنة بارة لـ"**فرنسا**"، وهي مخلصة لقضية العلم دون سواها. وهز "**بوارو**" كتفيه دون أن يجيب، ثم نهض بعد قليل في جد واتزان وقال:

- هذا كل ما لديَّ أيها السادة... فما أردت سوى تحذيركم وما كنت أجهل أنني قد أخفق في إقناعكم، ولكنكم الآن في جانب الحيطة والحذر على الأقل، ولقد يجد من الأحداث ما يدعم إيمانكم الواهن المتصدع... ولم يكن أمامي بد من الكلام... فقد لا يتاح لي ذلك فيما بعد، فسأله "**كروذر**" وقد أثرت في نفسه لهجته:

- ماذا تعني؟

- أعني يا سيدي أن حياتي لم تعد تساوي فتيلا بعد أن نفذت إلى شخصية رقم 4 فسيسعى جاهدا إلى هلاكي، وما سمي "**المدمر**" عبثا، إني أحييكم أيها السادة... أما أنت يا سيد "**كروذر**" فإني أعهد إليك بهذا المفتاح وهذه الرسالة المختومة، فقد جمعت مذكراتي في هذه القضية، وضممت إليها آرائي في كيفية مواجهة هذا الخطر الذي قد تهب على العالم أعاصيره في أي يوم، وأودعت هذه الوثائق جميعا بإحدى خزائن الودائع، فإذا مت فإني أفوض إليك يا سيد "**كروذر**" الاستيلاء على هذه الأوراق والانتفاع بها حسبما يروقك، والآن طاب نهاركم أيها السادة... انحنى "**ديجاردو**" في فتور، أما "**كروذر**" فقد هب واقفا ومد يده وهو يقول:

- لقد ضممتني إلى صفك يا سيد "**بوارو**"... ومهما يكن من غرابة ما أفضيت به إلينا فإني مقتنع بكل ما قلت تمام الاقتناع... وانصرف معنا السيد "**أنجلز**" فقال "**بوارو**":

– لم يخب أملي في هذا الاجتماع... وما كنت أطمع في إقناع "**ديجاردو**"، ولكنني قد ضمنت على الأقل أنني إذا قضيت نحبي فلن يموت معي ما أعرفه، لقد ضممت إلى صفنا رجلا أو رجلين، وليس هذا بالكسب القليل... فقال "**أنجلز**":

– إنني معك كما تعلم، وساعود إلى "**الصين**" في أسرع ما أستطيع...

– هل ترى من الحكمة أن تفعل ذلك؟

– كلا.. ولكنه أمر لابد منه... فإن المرء يحب أن يبذل كل ما في مقدوره... فهتف "**بوارو**" متأثرا:

– إنك لرجل باسل... ولو لم نكن في الشارع لعانقتك... وبدت على "**أنجلز**" دلائل الرضا والارتياح وهو يقول:

– لا أظن أنني أتعرض في "**الصين**" لخطر أشد مما يحيق بك هنا في "**لندن**"... فقال "**بوارو**":

– قد يكون هذا صحيحا، وكل ما أرجوه ألا يتمكنوا من قتل صديقي "**هاستنجز**" أيضا، فإن هذا يزعجني أشد الإزعاج... وقطعت عليهما هذا الحديث الممتع السار بقولي:

– إنه ليس في نيتي أن أقتل. وسرعان ما افترق عنا "**أنجلز**"... وسرنا قليلا صامتين ثم قطع "**بوارو**" حبل الصمت بملاحظة أثارت بي أشد العجب، فقد قال:

– إني لأرى أنه يحسن بي أن أشرك أخي في هذا الأمر... فهتف مبهوتا:

– أخوك؟ لم أكن لأعلم أن لك أخا!

– إن شأنك لعجيب يا "**هاستنجز**"، ألا تعلم أن لجميع رجال البوليس السري النابهين إخوة لولا ما فطروا عليه من الكسل لاقتعدوا غارب الشهرة والنجاح؟

ولـ"**بوارو**" في بعض الأحوال أسلوب لا يدري السامع معه هل يجد أم يمزح، فسألته وأنا في حيرة من الأمر:

– وما اسم أخيك؟ أجابني بجد:

– "**أكيل بوارو**"، وهو يقيم على مقربة من "**سبا**" في "**بلجيكا**".

– وما مهنته؟

– إنه لا يعمل شيئا، وقد قلت إنه كسول يؤثر الراحة والعافية... بيد أنه ليس دوني مقدرة وذكاء... وحسبه هذا تعريفا.

– وهل يشبهك؟

– أجل، وإن لم يكن في مثل وسامتي، ثم إنه يحلق شاربه.

– أهو أكبر منك سنًّا أم أصغر؟

– لقد شاءت المقادير أن يولد معي في يوم واحد... فهتفت:

– أتوأم هو؟

– نعم... لكن ها نحن قد بلغنا المنزل، فلنعكف في الحال على البحث في قضية عقد "**الدوقة**"...

بيد أنه كان مقدرا لقضية عقد "**الدوقة**" أن تظل في الانتظار قليلا، فقد طالعتنا قضية تختلف عنها كل الاختلاف، إذ أخبرتنا السيدة "**بيرسون**" بأن إحدى الممرضات جاءت في أثناء غيابنا، وأنها في انتظار السيد "**بوارو**". وألفيناها جالسة على المقعد الكبير المواجه للشرفة... وكانت امرأة نصفا، بشوشة الوجه، ترتدي ثوبا أزرق من الثياب الرسمية بالمستشفيات... وأبدت غير قليل من التردد في الإفضاء إلينا بما جاءت من أجله، وراح "**بوارو**" يستحثها ويشجعها فقالت:

– إني لم أصادف في حياتي شيئا كهذا على طول عهدي بأعمال التمريض... وقد ندبتني مؤسسة "**لارك**" للذهاب إلى "**هيرتفوردشير**" للعناية بشيخ هناك يسمى السيد "**ثمبلتون**"... وألفيت البيت تسوده الدعة والهدوء، وأهله على أكبر حظ من الدماثة وحسن المعاشرة... والسيدة "**ثمبلتون**" أصغر من زوجها كثيرا، وله ابن من زوجته الأولى... ولا يوجد كثير من الود بين السيدة "**ثمبلتون**" وابن زوجها... وهو ليس شابًا عاديًا... ولئن لم يكن أبله تماما فإنه بلا ريب قاصر العقل خامد القريحة إلى حد بعيد... أما مرض السيد "**ثمبلتون**" فقد بدا لي من أول وهلة غامضا عجيبا، فإن الشيخ ليبدو في بعض الأحيان سليما تام الصحة، ثم تنتابه على حين فجأة نوبة شديدة من نوبات الألم والقيء... بيد أن الطبيب لم يكن ليرى في ذلك ما يستوجب الملاحظة، ولم يكن من شأني الفحص والتعليل،

ولكنني مع ذلك لم أملك نفسي من التفكير في هذه الحالة العجيبة، ثم... وتوقفت الممرضة عن الكلام وقد صبغ وجهها الاحمرار... فقال "**بوارو**" يستحثها:

– هل وقع ما أثار ريبك وشكوكك؟

– أجل ووجدت الخدم يتغامزون ويهمسون كذلك ولعل الأمر يشمل السيدة "**ثمبلتون**" والطبيب، فقد كانوا يتهامسون ويهمسون... ثم رأيتهما معا ذات يوم بعيني رأسي في الحديقة... وأمسكت زائرتنا عن الكلام وقد بدا في محياها الألم للفضيلة المكلومة... ثم استطردت:

– وأخذت النوبات تزداد شدة، والدكتور "**تريفز**" لا يفتأ يقول إنها طبيعية تماما بالنسبة إلى حالة المريض وإنه لا يمكن أن يعيش طويلا، على أني لم أر ما يشبه ذلك في خلال اختباراتي الطويلة، ولاح لي أنها حالة من حالات... فقال "**بوارو**" يستحثها على الإتمام:

– حالة من حالات التسمم بالزرنيخ؟ وأومأت الممرضة بالموافقة ثم قالت:

– إن المريض قال شيئا غريبا "سيقضون عليَّ، هم الأربعة" ! فابتدرها "**بوارو**" قائلا:

– إيه؟

– هذه كلماته بنصها يا سيد "**بوارو**"، وكان ذلك الوقت يكابد ألما ممضا ولا يفقه ما يقول...

– وماذا تظنين أنه كان يعني بقوله "هم الأربعة"؟

– لا أعرف يا سيد "**بوارو**"... وقد خلت أنه يعني زوجته وولده والطبيب وربما آنسة "**كلارك**" وصيفة السيدة "**ثمبلتون**"...

– تماما... تماما... والطعام؟ ألم يكن بوسعه الاحتياط من ناحيته...؟

– إني أفعل دائما كل ما بوسعي، لكن السيدة "**ثمبلتون**" تصر أحيانًا على إحضار الطعام بنفسها. وأخرجت زجاجة بها سائل قاتم أعطتها لـ"بوارو" فقال:

– أحسنت صنعا يا آنسة، وسنرسل هذا لتحليله في الحال... وإذا عدت بعد

ساعة فاظن أنه سيكون بوسعنا البت في شكوكك بالنفي أو الإثبات...

وبعد أن وقف من زائرتنا على اسمها ومؤهلاتها شيعها إلى الباب، ثم أرسل الزجاجة إلى التحليل، وعكف على بحث ما أدلت به الممرضة من البيانات عن نفسها... وأبديت عجبي من ذلك فقال:

– كلا... كلا... إني لأحسن صنعا بالتزام جانب الحذر ولا تنس أن "الأربعة العظام" في أثرنا... على أنه سرعان ما استيقن أن ثمة ممرضة باسم "**مابل بالمر**" تنتمي إلى مؤسسة "**لارك**" وأنها ندبت للعناية بالمريض الذي أشارت إليه.

وعادت الممرضة "**مابل بالمر**" في الموعد المضروب لها، ولم نلبث أن تلقينا نتيجة التحليل، وكان الحساء خاليا من الزرنيخ، لكن به مادة الأنتيمون... قال "**بوارو**":

– سنسرع إلى "**هيرتفوردشير**"، وأسأل الله ألا نصل بعد فوات الأوان...

وبلغنا "**المستيد**" كما كان البيت يسمى متأخرين، وترك "**بوارو**" الممرضة تسبقنا إليه بعشرين دقيقة حتى لا يثير وصولنا معا شكوك أهل المنزل... واستقبلتنا السيدة "**ثمبلتون**"، وهي امرأة طويلة القامة، قوية البنية، قلقة النظرات ولاحظت أنها شهقت بشدة عندما ذكر "**بوارو**" لها اسمه، بيد أنها كانت تجيب عن أسئلته عن الخادمة دون تردد، ثم أراد "**بوارو**" جس نبضها، فأفاض في قصة طويلة عن زوجة دست السم لزوجها وهو لا يحول بصره في أثناء ذلك عن وجهها، فعراها من الاضطراب ما أجهدت نفسها عبثا في كتمانه، ولم تلبث أن استأذنت بكلمات غامضة وأسرعت بمغادرة الغرفة، ولم نلبث وحدنا غير قليل... وسرعان ما أقبل إلينا رجل ربعة يلبس نظارة، وقدم إلينا نفسه قائلا:

– أنا الدكتور "**تريفز**"، وقد طلبت السيدة "**ثمبلتون**" أن أعتذر لكم عنها، فإنها ليست على ما يرام... إنها تعاني توترا عصبيًا من أثر القلق على زوجها.

ودلف إلى الغرفة شاب مضطرب الخطى، يشف منظره عن البلاهة والخمول، وقد ارتفع حاجباه كأنه في دهشة أبدية لا يفيق من غمرتها، وراح يبتسم في غباء وهو يصافحنا فلم يخالجنا شك في أنه "الابن الأبله". انتقلنا جميعا بعد ذلك إلى قاعة لتناول العشاء، واستأذن الدكتور "**تريفز**" لحظة، وما كاد الغلام يخلو بنا حتى

تغيرت هيئته تغيرا عجيبا، ومال إلى "**بوارو**" قائلا:

– إنك جئت من أجل أبي... أعرف ذلك كما أعرف كثيرا من الأشياء، وإن لم يخطر هذا ببالهم... وسوف تسر أمي عندما يموت أبي وتتمكن من الاقتران بالدكتور "**تريفز**"... إنها ليست أمي الحقيقية كما تعلم، وهي تريد موت أبي...

كان حديث الفتى مريعا هائلا، لكن الطبيب عاد قبل أن يتسع الوقت أمام "**بوارو**" للجواب. ثم مال "**بوارو**" فجاة وهو يئن، وتقلصت عضلات وجهه ألما... وهتف الطبيب:

– ماذا أصابك يا سيدي العزيز؟

– نوبه مفاجئة كثيرا ما تعتادني... كلا، كلا... لست محتاجًا إلى مساعدتك يا دكتور، إنما أرجو أن أضطجع بإحدى غرف النوم.

وأجيب طلبه في الحال، فصعدت معه إلى الطابق الثاني حيث تهاوى على الفراش وهو يئن أنينا شديدا... وارتعت لذلك في أول الأمر ولكنني لم ألبث أن أدركت أن "**بوارو**" يتصنع المرض لكي يكون أقرب ما يستطيع إلى غرفة المريض... فلم يدهشني أن أراه يثب من السرير حالما أصبحنا وحدنا بالغرفة وهو يهتف:

– أسرع يا "**هاستنجز**" إلى النافذة... إن في الخارج أغصانا متسلقة على الجدار وبوسعنا الهبوط بواسطتها قبل أن يفطنوا إلينا...

– نهبط؟

– نعم... يجب أن نغادر هذا البيت في الحال... هل لاحظت في أثناء العشاء؟

– الدكتور؟

– كلا... بل "**ثمبلتون**" الصغير... إنه كان يعبث بالخبز، ولعلك لا تزال تذكر ما أخبرتنا به "**فلوسي مونرو**" قبيل موتها من أن "**كلود داريل**" من عادته التقاط الفتات من المائدة بقطعة من الخبز، هذه مؤامرة واسعة النطاق يا "**هاستنجز**"، وهذا الشاب الأبله هو عدونا الأكبر... رقم 4... أسرع.

ولم أحاول الجدل والمناقشة، وهبطنا بواسطة الأغصان المتسلقة الممتدة على

الجدار بكل ما استطعنا من الهدوء وما إن بلغنا الأرض حتى انطلقنا نحو المحطة متحاشين الشوارع المطروقة، واستطعنا إدراك القطار الذي يغادر البلدة في الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والثلاثين ليبلغ "**لندن**" حوالي الساعة الحادية عشرة، وقال "**بوارو**" عندما تحرك بنا القطار:

– لست أدري عدد المشتركين في هذه المكيدة ولكني أعتقد ان أسرة "**ثمبلتون**" المزعومة ليست إلا فئة من أعوان "الأربعة العظام" . واستغرق "**بوارو**" في تفكير عميق.. فلما وصلنا إلى البيت استوقفني عند باب غرفة الجلوس قائلا:

– خذ حذرك يا "**هاستنجز**" . إن الشكوك تساورني فدعني أدخل أولا... ولف يده بقطعة من الصوف قبل أن يضغط على زر الكهرباء وأخذ يطوف بالغرفة في حذر متأهبا لكل خطر، وقلت متبرما:

– إن كل شيء على ما يرام يا "**بوارو**"... أجاب:

– ذلك أدنى إلى الرجحان يا صديقي... لكن دعني أتأكد... قلت:

– هراء... سأشعل الموقد وأدخن غليوني... ما هذا؟ لقد كنت آخر من تناول علبة الثقاب ولم تردها إلى مكانها... وهو أمر طالما عنفتني عليه. ومددت يدي نحو علبة الثقاب... وسمعت صيحة التحذير التي انطلقت من "**بوارو**"... ورأيته يثب إلى الأمام نحوي... لكن يدي مست علبة الثقاب... وعند ذلك اندلع لهيب أزرق، وسمعت دويًّا يصم الآذان، ثم غشي كل ما حولي ظلام دامس... ولما ثبت إلى الرشد ألفيت صديقنا الدكتور "**ريدجواي**" منحنيا فوقي، ولاحت في محياه دلائل الرضا حين فتحت عيني... وقال متلاطفًا:

– لا تجهد نفسك ولا تأت بحركة... إنك بخير... لقد وقع حادث كما تعلم... وغمغمت في ضعف:

– و"**بوارو**"؟ وعبثا حاول الطبيب التهرب من الجواب فقال:

– لقد نجوت بمعجزة... أما "**بوارو**" فلم يقدر له ذلك... فصحت من فؤاد ملتاع:

– إنه لم يمت؟ وأطرق الدكتور "**ريدجواي**" إلى الأرض وقد غلبه التأثر. وجاهدت جهاد اليأس حتى استويت جالسا وقلت:

– لئن مات "بوارو" فإن روحه حية خالدة، سأواصل مهمته، الموت لـ "الأربعة العظام".

- 14 -

مات "بوارو" الرجل الفذ العظيم! ولقد عبثت يد شيطانية أثيمة بعلبة الثقاب وحولتها عن موضعها، وكان من المحقق أن يرى ذلك "بوارو" المولع بالترتيب والنظام فيبادر إلى تصحيح وضعها ويحدث الانفجار، لكن كان من المقدر أن أسبقه إلى مس العلبة، فأكون السبب المباشر في مقتل صديقي العزيز، وقد ظل هذا الخاطر مصدر ندم لا يفتأ ينهش فؤادي نهشا، لم تعد لي من مهمة في الحياة سوى الانتقام لصديقي وتعقب "الأربعة العظام" بلا هوادة حتى أظفر بهم وأقضي عليهم. وانقضى شهر كامل قبل أن أعافى تماما من آثار ذلك الحادث المشؤوم، فطلبت مقابلة وزير الداخلية، وأذن لي بذلك، ولما أفضيت إلى السيد "كرودر" بما عقدت عليه عزمي، وعرضت عليه خدماتي لمكافحة تلك العصابة الجهنمية، رفضها في رقة وأدب، وقال إن جميع الأوراق التي تركها المرحوم السيد "بوارو" قد أصبحت تحت يده، وأنه سيعمل على الحيلولة دون وقوع الخطر الذي نخشاه، وأردف هذا الرفض بالنصح لي بالذهاب إلى "أمريكا الجنوبية".

وأظن أنه كان يخلق بي أن أصف جنازة "بوارو" في حينها، فقد كان مأتما مهيبا مؤثرا، وكان عدد أكاليل الزهر التي أرسلت يفوق كل ما يخطر بالبال، وقد جاءت من العظماء والمغمورين على السواء، فكانت أصدق دليل على المنزلة التي أحرزها صديقي الراحل في البلد الذي اتخذه وطنا ثانيا، أما أنا فقد نال مني الحزن والأسى كل منال عندما وقفت بجانب جدثه أستعرض في خاطري جميع ما خضنا غماره من المخاطر والأهوال، وما نعمنا به من أيام السعادة والصفو...

وما وافي شهر أيار (مايو) حتى كنت قد رسمت خطتي للهجوم ولم أر خيرا من مواصلة طريقة "بوارو" بالإعلان في عدد من الصحف الصباحية عن الحاجة إلى معلومات عن "كلود داريل" وقد كنت جالسا ذات يوم بمطعم صغير في "سوهو"

أستعرض نتائج إعلاني إذ لمحت في قسم آخر من الصحيفة نبأ هالني وأزعجني، فقد روى اختفاء السيد "**جون أنجلز**" بكيفية غامضة من الباخرة "**شنغهاي**" بعد إبحارها من ميناء "**مارسيليا**" بقليل، ومع أن الجو كان هادئا لينا فإنه يخشى أن يكون ذلك السيد قد سقط من سطح السفينة فابتلعه اليم، وانتهى النبأ بالإشارة إلى خدمة السيد "**أنجلز**" الطويلة المجيدة في "**الصين**".

كدت أصعق من هذا النبإ، وأدركت أن السيد "**أنجلز**" المسكين لم يمت قضاء وقدرا بل قتلته العصابة الرهيبة الملعونة، وبينما أنا أفكر في هذا الحادث الأليم مشتت البال استرعت نظري غرابة مسلك الرجل الجالس أمامي والذي لم أعره قبل ذلك التفاتا، فلقد انحنى إلى الأمام وأخذ يساعدني في نثر الملح على طعامي، ولكنه نثر منه أربع كومات متفرقات على حافة صحفتي وهو يقول:

– معذرة فإنهم يقولون إن من ساعد غريبا في نثر الملح على طعامه جلب عليه النحس والنكد، ولكني أرجو ألا يحدث شيء وأن تسلك جادة الحكمة والعقل. وما كان معنى هذه الإشارة ليخفي عليّ، فأدركت من فوري أن الرجل الجالس أمامي ليس إلا رقم 4، وإن لم يكن هناك وجه من أوجه الشبه بينه وبين الشاب الأبله "**ثمبلتون**"، أو الخادم "**جيمس**"، أو غيرهما من الشخصيات التي التقينا به فيها. وتلفت حولي مترددا فيما أفعل، فقرأ ما يجول في خاطري وقال مبتسما:

– لا أنصح لك بذلك فإن خط رجعتي مأمون، إن أفكارك على شيء من السذاجة يا كابتن "**هاستنجز**". فهتفت وأنا أكاد أختنق من الغيظ:

– أيها الشيطان... أيها الشيطان المارد!

– ما أسرعك إلى الغضب والانفعال، لقد كان صديقك المرحوم المأسوف عليه خليقا بأن يخبرك بأن الهدوء والثبات أكبر عون لصاحبهما.

– أتجرؤ على ذكر الرجل الذي قتلته بنذالة؟ أتاتي إلى هنا... فقاطعني قائلا:

– لقد جئت إلى هنا لغاية سلمية نبيلة، جئت أنصح لك بالإياب إلى "**أمريكا الجنوبية**"، فإذا فعلت كان في ذلك نهاية الأمر فيما يختص بـ"الأربعة العظام". وضحكت وأنا أقول ساخرا:

– وإذا أبيت أن أطيع أمركم المستبد؟

– من العسير أن تدعوه أمرا، والأحرى بك أن تسميه... إنذاراً. وكان في صوته وعيد صامت، ثم أردف قائلا:

– إنه الإنذار الأول، ويحسن بك ألا تتجاهله. وقبل أن أفطن إلى ما يفعل نهض وانسل مسرعا نحو الباب فبادرت إلى اللحاق به لكن رجلا بدينا ضخم الجثة اعترض سبيلي وهو في طريقه إلى إحدى الموائد، ولما تخلصت منه كان خصمي قد بلغ الباب، ثم اصطدم بي على حين فجاة أحد الخدم وهوت الصحفة التي يحملها إلى الأرض، فما كدت أفرغ من هذه العقبة الجديدة حتى كان خصمي قد اختفى، وأسرعت إلى الباب ولكني لم أر له أثرا، وأفاض الخادم في الاعتذار، ورأيت الرجل البدين جالسا إلى مائدته في دعة وهدوء، ولكني لم أصدق أن هذين الحادثين وقعا بمحض المصادفة والاتفاق، وأيقنت أن أعوان "الأربعة العظام" منبثون في كل مكان. وفي ذات يوم دق جرس التليفون فتناولت السماعة وأجابني صوت يقول:

– مستشفى "**سنت جايلز**"، عندنا هنا رجل صيني أصيب بطعنة في الشارع وحمل إلى المستشفى ولا يمكن أن يعيش طويلا، وقد اتصلنا بك لأننا وجدنا بجيبه ورقة عليها اسمك وعنوانك.

ووعدت بالذهاب إلى المستشفى في الحال وأنا في أشد العجب من هذا الحادث الغريب، ولقد خامرني الريب وأنا في الطريق إلى المستشفى، وخشيت أن يكون الأمر حبالة نصبها لي "الأربعة العظام"، فإن أصبع "**لي تشانغ ين**" في كل مكان يوجد به أحد من أبناء "**الصين**"، على أني لم أر في الذهاب إلى المستشفى ضيرا. ولما بلغت المستشفى اقتادوني في الحال إلى الرجل المصاب وكان جامدا لا حراك به وهو مطبق العينين، ولولا ما يتردد في صدره من الأنفاس الخافتة لما شككت في موته، وقال لي طبيب واقف بجانب السرير ويده على نبض المريض:

– إنه من القبر قاب قوسين أو أدنى، هل تعرفه؟ فهززت رأسي قائلا:

– لم يقع عليه بصري قبل اليوم.

– ما معنى وجود اسمك وعنوانك معه إذن؟

- لست أعلم بهذا منك.

- هذا عجيب، لقد كان فيما يدل ما معه من الأوراق خادما لرجل يسمى "**أنجلز**" وهو موظف مدني متقاعد. وانتفضت عند سماع اسم "**أنجلز**" فقال الطبيب:

- إنك تعرفه... اليس كذلك؟

خادم "**أنجلز**" ! إذن فقد أبصرته من قبل، وإن لم يكن بوسعي التمييز بين صيني وصيني، ولا ريب أنه كان مع سيده في رحلته إلى "**الصين**"، فلما وقعت الكارثة قفل عائدا إلى "**إنجلترا**"، ولعله يحمل رسالة إليّ لابد من وقوفي عليها. وقلت للطبيب:

- هل يستطيع الكلام؟ لقد كان السيد "**أنجلز**" صديقا قديمًا، وقد يكون هذا الرجل المسكين يحمل إليّ رسالة منه.

- إني أشك في مقدرته على الكلام، فقد نزف كثيراً من دمه، وبوسعي بالتأكيد أن أعطيه منشطا، ولكننا فعلنا كل ما استطعناه في هذا السبيل.

بيد أن الطبيب حقن المصاب حقنة تحت الجلد، ومكثت بجانب السرير أترقب كلمة أو إشارة تنير أمامي السبيل، بيد أن الدقائق أخذت تمضي سراعا دون أن أظفر بما أريد ثم ساورني الريب فجأة، الا يمكن أن يكون هذا الصيني قد زعم أنه خادم "**أنجلز**" كذبا وانتحالا، وهو في الحقيقة من أعوان "الأربعة العظام"؟ ألا يمكن أن يكون الأمر حيلة لهلاكي؟ ألم أقرأ ذات مرة أن الكهنة الصينيين يستطيعون إحداث جميع مظاهر الموت؟ وهل يستبعد أن يكون لدى "**لي تشانج ين**" جماعة من ذوي التعصب والهوس الديني الذين لا يحجمون عن التضحية بأرواحهم تلبية لأمره وخدمة لأغراضه ومقاصده، وما إن سنح هذا الخاطر لي حتى تحرك الرجل في فراشه وفتح عينيه، وراح يشخص إليّ ببصره كأنه يحاول الكلام. وانحنيت فوقه، ولكنه أخذ يخرج أصواتا متقطعة مبهمة، ثم بدا لي أنه يقول "**لارجو هاندل**" فسألته:

- "**لارجو هاندل**"؟ واختلج جفنا الرجل كأنه يقول "نعم"، وأضاف إلى ذلك

كلمة إيطالية هي "**كاروتزو**" ثم غمغم بكلمات إيطالية مبهمة وهمدت حركته إذ فارق الحياة. وغادرت المستشفى وأنا في أشد حيرة من أمر هذا الصيني الذي يتكلم بالإيطالية، وكان أدنى إلى العقل والمنطق أن يتكلم بالإنجليزية إذا كان خادم "**أنجلز**" حقًّا. وعدت إلى البيت وولجت غرفتي فالفيت على المنضدة رسالة في انتظاري، وفضضت غلافها دون اكتراث ولكني لم أكد أقرؤها حتى جمدت في مكاني مبهوتا، فقد كانت صادرة من مكتب بعض المحامين، وهي كما يلي:

« سيدي العزيز – طبقا لتعليمات موكلنا المرحوم "**هركيول بوارو**" نرسل إليك مع هذا رسالة تركها لنا قبل موته بأسبوع، وأوصى بإرسالها إليك في تاريخ معين بعد وفاته – المخلصون... إلخ ». وأخذت أقلب الرسالة المرسلة معها في وجوم وأسى، فقد كان العنوان مسطرا على غلافها بخط صديقي "**بوارو**" الذي أعرفه حق المعرفة، وفضضتها أخيرا فقرأت ما يلي:

« صديقي العزيز – عندما تقرأ هذه السطور سأكون في عالم غير عالمكم، فلا تذرف عليَّ الدمع السخين بل نفذ أوامري، يجب أن تعود إلى "**أمريكا الجنوبية**" حالما تصلك هذه الرسالة، ولا آمرك بهذا الرحيل استجابة لعاطفة، بل هو ضرورة لا مناص منها، هو جزء من خطة "**هركيول بوارو**"! ولا أجد حاجة إلى التزيد في الإيضاح لرجل لبيب في ذكاء صديقي "**هاستنجز**"، ليسقط "الأربعة العظام"! أحييك يا صديقي من وراء القبر "**هركيول بوارو**" ».

تلوت هذا الكتاب العجيب مثنى وثلاث ورباع، فرأيت أن ذلك الرجل الفذ لم يقو الموت على هدم خططه وجهوده، وأن عليَّ أن أكون اليد المنفذة بينما يظل "**بوارو**" الرأس المفكر من عالم الخلود! وبادرت إلى تنفيذ أمره واثقا بأنني سأجد في "**أمريكا الجنوبية**" مزيدا من التعليمات وكان البحر هادئا، والريح رخاء لينة، وأخذت بحظ مما يتلهى به المسافر من ضروب التسلية والمتع ثم آويت إلى فراشي واستغرقت في نوم عميق. ولم ألبث أن استيقظت من النوم وأنا أشعر بمن يهزني هزًّا عنيفا متصلا، فلما فتحت عيني في ذهول وتثاقل ألفيت أمامي أحد ضباط الباخرة، وقال:

- الحمد لله إذ استيقظت أخيرا، أتستغرق دائما في مثل هذا النوم العميق؟
فسألته مبهوتا:

- ماذا حدث؟ أجابني بجفاء:

- لعلك أدرى مني بما حدث، لقد تلقينا تعليمات خاصة من الأميرالية بأن نسافة معدة لحملك، وقد أرسلوا شابًا ليحل محلك، كما أخذوا علينا العهد جميعا بالتزام الصمت والكتمان.

وصدعت بالأمر وأنا لا أملك نفسي من الدهشة والعجب، فانتقلت إلى النسافة حيث لقيت أطيب المعاملة دون أن اظفر بكلمة واحدة عن سر هذا الحادث العجيب، وكانت أوامر القبطان تقضي بإنزالي في نقطة معينة من الشاطئ البلجيكي ولم يكن ليعرف من الأمر كله أكثر من ذلك. ولقد خيل إليَّ أنني في حلم من الأحلام، ولكنني كنت على أتم اليقين من أن هذا بعض خطط "**بوارو**"، وأن عليَّ أن أتقدم في السبيل الذي رسم لي مغمض العينين، واثقا بصديقي الراحل. وأنزلت على الشاطئ البلجيكي حيث كانت في انتظاري سيارة انطلقت تطوي الأرض، فتذكرت إذ ذاك أن "**بوارو**" سبق أن أخبرني بأن له أخا يقيم في "**سبا**" بيد أن السيارة لم تذهب إلى "**سبا**"، بل راحت تخترق الطرق الخشنة التي تكتنفها المرتفعات والتلال حتى بلغنا أكمة يقوم فوقها بيت صغير أنيق.

وفتح الباب عندما هبطت من السيارة، ووقف أمامه خادم مسن انحنى لي باحترام وقال:

- سيدي الكابتن "**هاستنجز**"؟ تفضل بالدخول. وتقدمني مجتازا الردهة، ثم فتح بابا في آخرها وتنحى جانبًا لكي أدخل، وأخذت أطوف قليلا إذ كانت الغرفة غريبة وكان ضوء الشمس بها ساطعا قويًا، ولم ألبث أن رأيت رجلا فاتحا ذراعيه لاستقبالي، وهتفت وأنا أندفع نحوه:

- "**بوارو**".

- أجل... أجل، أنا هو حقًا، وليس من السهل قتل "**هركيول بوارو**"؟

- لكن لماذا تختفي؟

– خدعة حربية يا صديقي...

– إننا الآن على وشك إنزال ضربتنا القاضية...

– كلا يا "**هاستنجز**"... فما كنت لتجيد دورك في جنازتي كما فعلت...

– لكن ما أشد ما فعلت بي اللوعة والحزن...

- 15 -

أخذنا نرقب سير الحوادث من مكمننا، و"**بوارو**" يتلقى كل يوم تقريرا لا أدري ما هو. وقال لي ذات يوم:

– لقد كان خوفي من أن تلقى مصرعك بسببي، أما الآن فأنا مطمئن كل الاطمئنان... وهب أنه أتيح لهم أن يكتشفوا أن الكابتن "**هاستنجز**" الذي هبط "**أمريكا الجنوبية**" دعي محتال (ولا أخالهم يكتشفون ذلك أو يرسلون إلى هناك من يعرف شخصك) فسيعتقدون أنك تحاول التواري منهم حذر كيدهم وبطشهم، ولن يبذلوا جهدا حقيقيًّا في اكتشاف مكمنك... أما موتي المزعوم فهم مقتنعون به أشد الاقتناع، ولذلك سوف يمضون في تنفيذ خططهم الكبرى قدما. فسألته بشوق:

– وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك البعث العظيم لـ"**هركيول بوارو**"... سأظهر في الساعة الأخيرة، وألقي في صفوفهم الفوضى والاضطراب، وأحرز الفوز الأكبر بطريقتي الفذة... قلت متذمرا:

– لكن هذا قد يعني الانتظار طويلا...

– إنك تتعجل الحوادث دائما يا عزيزي "**هاستنجز**"... لكن لن يطول بنا الانتظار، فإن الرجل الوحيد الذي كانوا يخشونه وهو أنا قد أزيح من طريقهم...

وهنا تذكرت ذلك الصيني الذي حضرت وفاته بمستشفى "**سنت جايلز**"، فسردت عليه قصته وهو مصغ إليَّ بمزيد الجد والاهتمام. وقال أخيرا:

– خادم إنجليزي؟ وكانت الكلمات القلائل التي نطق بها باللغة الإيطالية؟ هذا عجيب.

– أجل، وهذا هو ما حدا بي إلى الشك في أنه كان خادم صديقنا "**أنجلز**" حقًّا... والظن بأن الأمر كله حيلة من حيل "الأربعة العظام"...

– إن تفكيرك خاطئ يا "**هاستنجز**"... استعمل خلايا مخك الرمادية الصغيرة... لو كان الأمر مدبرا من "الأربعة العظام" كما تظن لتكلم الرجل بإنجليزية واضحة... كلا إن الرسالة كانت حقيقية... أعد على سمعي كل ما نطق به الرجل.

– كان أول ما فاه به إشارة إلى "**لارجو هاندل**" ثم قال كلمة تشبه "**كاروتزو**" وهي كلمة إيطالية معناها مركبة فيما أظن.

– ألم يقل غير ذلك؟

– لقد غمغم قبيل وفاته بكلمة تشبه أسماء النساء... "**كارازيا**" مثلا ولكني لا أظن أن لها صلة بغيرها من كلماته.

– إن "**كارازيا**" مهمة جدًّا يا "**هاستنجز**" وإن ظننت غير ذلك.. إنكم معشر الإنجليز قلما تعرفون علم الجغرافيا...

– الجغرافيا؟ وما علاقة الجغرافيا فيما نحن بصدده؟ بيد أن "**بوارو**" أبى كعادته أن يضيف إلى ذلك شيئا... وبدا بعد هذا الحديث متهللا منشرح الصدر كأنما أحرز شيئا من الفوز والنجاح...

ومضت الحياة في تلك الفيللا المنزوية هادئة وادعة حتى أشرف شهر تموز (يوليو) على نهايته، وإذ ذاك تجدد حديث "الأربعة العظام"، فقد وقفت أمام البيت سيارة في صباح يوم من الأيام، ولم يكن هذا بالأمر العادي في حياتنا الهادئة فاسرعت بالخروج أستطلع الخبر، وألفيت "**بوارو**" يتحدث إلى شاب حسن الهيئة في مثل سني، فقدمه إليَّ قائلا:

– أقدم إليك يا "**هاستنجز**" الكابتن "**هارفي**" من إدارة مخابراتكم... وقال الشاب ضاحكا:

– وهو اسم أخشى ألا يكون معروفا. فأجاب "**بوارو**" :

– إنه غير معروف إلا للواقفين على بواطن الأمور... إن معظم أصدقاء الكابتن "**هارفي**" ومعارفه يعتقدون أنه فتى ظريف ولكنه خامل قليل الذكاء لا يحسن غير الرقص. وضحكنا جميعا، ثم استطرد "**بوارو**" قائلا:

– إن من رأيك إذن أن الساعة قد حانت؟ فأجاب الكابتن "**هارفي**" :

– إننا واثقون بذلك يا سيدي، فقد عزلت "**الصين**" سياسيًا بالأمس ولا يدري غير الله ما يجري في ربوعها إذ قطعت جميع وسائل المواصلات...

– لقد أسفر "**لي تشانج ين**" عن يده... فماذا فعل رفاقه؟

– إن "**أيب رايلاند**" حضر إلى "**إنجلترا**" في الأسبوع الماضي، ثم غادرها أمس...

– والسيدة "**أوليفييه**" ؟

– لقد رحلت السيدة "**أوليفييه**" عن "**باريس**" في الليلة الماضية.

– إلى "**إيطاليا**" ...؟

– أجل يا سيدي إلى "**إيطاليا**" ... وإننا لنرجح أنهما يقصدان المكان الذي أشرت إليه، ولو أننا لا ندري كيف استطعت معرفته...

– ليس لي في ذلك من فضل، بل الفضل كله لصديقي "**هاستنجز**" ... إنه يخفي ألمعيته وذكاءه، ولكنه ذكاء متوقد توقد شمس الضحى... ونظر إليّ "**هارفي**" فيما ينبغي من التقدير والإكبار، وعراني من جراء ذلك ارتباك غير قليل... وقال "**بوارو**" في لهجة جادة:

– إن الأحداث تسير الآن في مجراها والساعة قد حانت، فهل اتخذتم جميع الترتيبات؟

– لقد فعلنا كل ما أمرت به، ومن ورائك حكومات "**إنجلترا**" و"**فرنسا**" و"**إيطاليا**" تشد أزرك وتعمل باتفاق تام... قال "**بوارو**" :

– إنه في الحقيقة حلف جديد، ويسرني اقتناع "**ديجاردو**" أخيرًا... حسنًا... سأبدأ أنا، أما أنت يا "**هاستنجز**" فستبقى هنا... إنني جاد في هذا الطلب

يا صديقي...

على أني ما كنت لأقبل التخلف على هذا النحو، وعبثا حاول "**بوارو**" إقناعي بالبقاء... ولم يعترف لي بسروره بما عقدت عليه عزمي إلا والقطار ينهب بنا الأرض نحو "**باريس**". وقال:

– إن لك دورا مهمًا جدًا لا غنى لي عنه، لكن كان من واجبي أن الح عليك في البقاء.

– إذن هناك خطر؟

– حيثما يكون "الأربعة العظام" يا صديقي يجثم الخطر... ولما بلغنا "**باريس**" قصدنا من فورنا إلى محطة الشرق قاصدين "**بولزانو**" و"**التيرول**" الإيطالي وانتهزت غياب "**هارفي**" عن المركبة قليلا وسالت "**بوارو**":

– لماذا قلت إن اكتشاف مكان اجتماع رجال العصابة من عملي؟ فأجاب:

– لأنه كان كذلك حقًا يا صديقي... ولا أدري كيف تهيّا لـ"**أنجلز**" أن يعرفه... ولكنه عرفه على كل حال وأرسل مع خادمه ينبئنا به... إننا قاصدون إلى "**كاريرسي**" يا صديقي، واسمها الجديد عند الإيطاليين هو "**لاجو دي كاريتزا**" وهذه هي حقيقة الألفاظ التي فاه بها ذلك الصيني التاعس وهو يجود بأنفاسه فترامت إليك محرفة...

– وهل يلتقي "الأربعة العظام" بذلك المكان المنعزل؟

– بل قل إنه مقر قيادتهم العامة... لقد صدرت إشارة البدء بالعمل، وسيتوارون عن العيون ويصدرون أوامرهم من معقلهم الجبلي المنيع باللاسلكي إلى أنصارهم الذين يعدون بالآلاف في كل قطر... ومن ذلك الغار الخفي في جبل "**دولوميت**" سوف يخرج الطغاة الذين يحكمون العالم أجمع، أو أنهم كادوا يفعلون ذلك لو لم يتصد لهم "**هركيول بوارو**".

– أجاد أنت في هذا الاعتقاد يا "**بوارو**"؟ وماذا تفعل إذن جيوش العالم المتحضر وأسلحته...؟

– وماذا فعلت هذه الجيوش والأسلحة في "**روسيا**"؟ إن الانقلاب الذي يعده

"الأربعة العظام" شبيه بالثورة الروسية غير أنه أبعد مدى وأوسع نطاقا... ومما يزيد الأمر خطورة أن السيدة "أوليفييه" أحرزت في أبحاثها وتجاربها نجاحا لم تصل إليه من قبل... واعتقادي أنها نجحت إلى حد ما في إطلاق القوة الذرية وتذليلها لأغراضها، فبات في مقدورها ان تسلط شعاعا لاسلكيًّا هائلا على أية نقطة تختارها... فإذا أضفت إلى هذه العبقرية الفذة ثروة "رايلاند" التي تفوق كل حد، وعقلية "لي تشانغ ين" الجبارة وهي أعظم عقلية إجرامية عرفها العالم، كان بوسعك أن تقدر الخطر الذي يحيق بالمدنية والحضارة.

لقد حملتني كلمات "بوارو" على التأمل والتفكير، فما عهدته من دعاة الرعب والفزع. وعاد إلينا "هارفي"، ومضى القطار يطوي المسافات طيًّا حتى بلغنا "بولزانو" حوالي منتصف النهار.

استغرقت رحلتنا بالسيارة ساعتين، وكنا في القسم الأول منها نجتاز طائفة من المرتفعات الصخرية المنحدرة، ومازلنا نعلو حينا فآخر حتى وصلنا إلى واد خصيب يمتد بضعة كيلومترات، ثم أخذنا ندور مصعدين فلاحت لأبصارنا التلال الصخرية الجرداء وعلى سفوحها غابات الصنوبر الكثيفة، وسرنا أخيرا في طريق ملتو كثير المنحنيات وغابات الصنوبر تمتد عن أيماننا وشمائلنا حتى وقفنا أمام فندق كبير كان نهاية رحلتنا. وكانت غرفنا قد حجزت سلفا فصعدنا إليها من فورنا بإرشاد "هارفي"، وكانت تشرف على القمم الشامخة وغابات الصنوبر المترامية على سفوح المرتفعات... وأشار إليها "بوارو" وقال بصوت منخفض:

– أهذا هو الملتقى؟ فأجاب "هارفي":

– أجل. إن هناك مكانا يسمى "تيه فيلسين" يتألف من آكام صخرية عجيبة التكوين تتخللها مسالك ضيقة ملتوية متشابكة يضل بها الهادي، والمحجر إلى يمين هذه الآكام ولكننا نرجح أن مدخله في التيه نفسه. وقال "بوارو":

– هيا بنا ننزل إلى التراس يا صديقي لنستمتع بضوء الشمس. قلت:

– أمن الحكمة هذا؟ فهز كتفيه دون أن يجيب. وكانت الشمس دافئة ممتعة فاحتسينا القهوة ثم صعدنا وحللنا أمتعتنا القليلة... وكان "بوارو" مستغرقا في

تفكير عميق لا ينبس بكلمة، ورأيته يهز رأسه ويتنهد مرة أو مرتين. وكان قد أثار ريبي رجل هبط معنا من القطار في "**بولزانو**" واستقل سيارة خاصة كانت في انتظاره... واستلفت نظري إليه أنه كان يخفي وجهه مثل "**بوارو**" فضلا على أنه كان يضع على عينيه نظارة زرقاء كبيرة، فلم أكد أشك في أنه من أعوان "الأربعة العظام". ولم يقتنع "**بوارو**" برأيي كثيرا، ولكني بعد أن نظرت من نافذة غرفتي أنبأته أن الرجل يتمشى على كثب من الفندق فلم يسعه إلا الاعتراف بأن رأيي قد يكون على شيء من الصواب.

وألححت على صديقي في عدم النزول لتناول العشاء ولكنه أبى الاستماع إليَّ، ودخلنا قاعة الطعام متأخرين بعض التأخير فأخذنا الخادم إلى مائدة بجانب النافذة... وبينما نحن نهم بالجلوس سمعنا صيحة دهشة وعجب وصوت تحطيم إناء خزفي، ورأينا أن طبقا قد انقلب على رجل جالس على المائدة المجاورة لنا. وبادر رئيس الخدم إلى الرجل وأفاض في إبداء أسفه واعتذاره، وجاءنا الخادم الذي أخطأ بالحساء فقال له "**بوارو**":

– إنه لحادث يؤسف له لكن الذنب ليس ذنبك.

– هل رأيت ما حدث يا سيدي؟ إن الخطأ لم يكن في الحقيقة مني... فلقد انتفض السيد وأجفل فجأة حتى خلت أنه يوشك أن يصاب بنوبة، ولم يكن في مقدوري تحاشي ما وقع... وومض في عيني "**بوارو**" ذلك اللهب الأخضر المعهود وقال بعد انصراف الخادم:

– أرأيت يا "**هاستنجز**" تأثير "**بوارو**" حيًّا؟

– هل تظن... ولكني لم أتم عبارتي إذ أحسست بيد "**بوارو**" على ركبتي وهو يهمس منفعلا:

– انظر يا "**هاستنجز**"... انظر، انظر كيف يعبث بخبزه رقم 4. وكان الرجل الجالس بجوارنا يلتقط حقًّا الفتات المتناثرة على مائدته بقطعة صغيرة من الخبز وقد كست وجهه صفرة كصفرة الموتى، وغمغمت قائلا:

– لقد عرفك ولم يكن من الصواب نزولك إلى هنا.

– إنما تظاهرت بالموت ثلاثة أشهر يا عزيزي "**هاستنجز**" من أجل هذه الغاية دون سواها.

– أكنت ترمي إلى مفاجأة رقم 4؟

– لقد أردت مفاجأته في لحظة لا يجد معها بدا من عمل مرتجل سريع أو تطليق مطامعه وآماله إلى الأبد، ونحن نمتاز عليه بأنه يعتقد أننا لا نعرفه وأنه آمن في تنكره الجديد. ألا رحم الله "**فلوسي مونرو**" إذ أخبرتنا بهذه العادة البسيطة.

– وما الذي تتوقع أن يحدث الآن؟

– وما الذي يمكن حدوثه؟ لقد رأى الرجل الوحيد الذي يرهبه ويخشاه يخرج من القبر فجأة بمعجزة من المعجزات في نفس اللحظة التي أضحت فيها مشروعات "الأربعة العظام" في كفة الميزان، وقد تناولت السيدة "**أوليفييه**" و"**أيب رايلاند**" طعام الغداء هنا، والمعتقد أنهما ذهبا إلى "**كورتينا**" ولكننا نعلم أنهما قد لاذا بمعقل العصابة. وإن رقم 4 ليسائل نفسه الآن عن مدى ما نعرفه من أمرهم، وهو لا يستطيع أن يقدم على أية مجازفة فلابد من القضاء عليه في الحال بأي ثمن، لكن دعه يحاول القضاء على "**هركيول بوارو**"! إني لعلى تمام الأهبة والاستعداد. وعند ذلك نهض الرجل وغادر القاعة فقال "**بوارو**" بهدوء:

– لقد ذهب لوضع خططه السريعة، هل نذهب لتناول القهوة في التراس يا صديقي؟ سأصعد لارتداء معطفي.

خرجت إلى التراس مضطرب الفكر، فما كنت لأطمئن إلى كلمات "**بوارو**"، حتى رأيت أننا بمأمن من كل سوء إذا ظللنا على قدم التأهب والاستعداد. ولحق بي "**بوارو**" بعد خمس دقائق وقد تلثم إلى أذنيه حذر البرد كعادته، وراح يرشف قهوته في لذة ورضا، وسرعان ما ظهر الرجل الذي كان بالمطعم فجأة وتقدم نحونا وجلس على مقعد ثالث معنا دون تردد ولا إحجام. وقال بالإنجليزية:

– أرجو ألا يكون لديكما مانع من جلوسي معكما. فأجاب "**بوارو**":

– كلا يا سيدي.

وتولاني القلق والاضطراب على الرغم من وجودنا في التراس بين نزلاء الفندق

الكثيرين إذ شممت رائحة الخطر، أما رقم 4 فقد أفاض في الحديث هادئا مطمئنًا كأنه سائح عاديٌّ. وأخذ من جيبه غليونا وشرع في إشعاله، فأخرج "**بوارو**" سيجارة وضعها بين شفتيه ومال رقم 4 نحوه وفي يده عود الثقاب وقال:

– اسمح لي بإشعال سيجارتك.

وما إن تفوه بهذه الكلمات حتى أطفئت جميع الأنوار فجأة، وسمعت صوت كسر زجاج، وشممت رائحة حادة نفاذة تحت أنفي ضاقت منها أنفاسي.

لا يمكن أن أكون غبت عن الصواب أكثر من دقيقة واحدة، وعندما ثبت إلى رشدي شعرت بأنني بين رجلين يحملانني حملا واضعين أيديهما تحت إبطي، وقد كمما فمي، وكان الظلام دامسا فأدركت أننا لا نزال بالفندق وإن كنا في طريقنا إلى الخارج، وكانت الأصوات ترتفع من حولي متسائلة بكل لغة معروفة عما أصاب الأنوار، ثم هبط بي الرجلان بضع درجات واجتزنا أحد ممرات البدروم ثم نفذنا إلى الخارج من باب زجاجي خلف الفندق، وإن هي إلا لحظة قصيرة حتى كنا في كنف أشجار الصنوبر الباسقة الملتفة، ولمحت شبح رجل آخر في مثل حالتي فعلمت من فوري أن "**بوارو**" أيضا من ضحايا هذه الضربة الجريئة. لقد فاز رقم 4 فوزا مبينا بفضل جرأته وإقدامه، واستنتجت أنه استعمل أنبوبة مخدر كسرها تحت أنفينا، ثم انتهز فرصة الظلام وما ساد من الفوضى والاختلاط فكممنا أعوانه الذين كانوا منبثين بين نزلاء الفندق.

وليس بوسعي وصف الساعة التي تلت ذلك، فقد مضينا نشق طريقنا في قلب الغابات الكثيفة مصعدين حتى خرجنا إلى العراء على منحدر الجبل، ورأيت حولي تلالا صخرية عجيبة الشكل فلم أشك في أنها "**تيه فيلسين**" الذي حدثنا عنه "**هارفي**"، وأخذنا نسير في المسالك الملتوية المتشابكة حتى وقفنا فجأة أمام صخرة ضخمة تسد علينا الطريق، وانحنى أحد الرجال كأنه يدفع شيئا فدارت تلك الصخرة حول نفسها دون أن تحدث صوتا، وبدا أمامنا نفق ضيق أسرعنا فيه فلم يلبث أن انفرج وتباعد جانباه حتى أفضى بنا إلى قاعة فسيحة منقورة في الصخر يسطع فيها نور الكهرباء، وعند ذلك رفعت الكمامة عن فم كل منا، ووقف أمامنا

رقم 4 وعلى محياه ابتسامة السخرية والفوز، وأشار إلى أعوانه ففتشونا تفتيشا دقيقا وأخذوا كل ما معنا ومن بينه مسدس "**بوارو**" الصغير، وحز في نفسي الألم واليأس عندما رأيتهم يلقون بالمسدس على المنضدة، فقد أيقنت بالخذلان وسوء المصير. وقال رقم 4 متهكما:

– مرحبا بك في مقر قيادة "الأربعة العظام" يا سيد "**هركيول بوارو**"، أكان هذا يستحق مشقة بعثك من القبر؟ ولاذ "**بوارو**" بالصمت ولم أجرؤ على النظر إليه. واستطرد رقم 4 قائلا:

– تعال من هنا... إن وصولك سيكون مفاجأة لأصحابي.

وأشار إلى مضيق بالجدار فنفذنا منه إلى قاعة أخرى... وكانت في نهايتها منضدة صفت أمامها أربعة مقاعد. وكان المقعد الأول خاليا وقد بسط عليه وشاح حاكم صيني، وجلس على المقعد الثاني السيد "**أيب رايلاند**" المليونير الأمريكي، واضطجعت في المقعد الثالث السيدة "**أوليفييه**" بعينيها المتقدتين ووجهها الذي يشبه وجوه الراهبات... وأخذ رقم 4 مكانه على المقعد الرابع.

كنا في حضرة "الأربعة العظام"، ولم أشعر قط بمحضر "**لي تشانج ين**" وسطوته كما شعرت به إذ ذاك وأنا أنظر إلى المقعد الخالي... إنه في أقصى "**الصين**"، ولكنه يسيطر على هذه الهيئة الجهنمية ويوجهها. وأفلتت من بين شفتي السيدة "**أوليفييه**" صيحة خفيفة عندما وقع بصرها علينا... أما "**رايلاند**" فكان أثبت منها جنانا إذ لم يزد على تحريك سيجاره ورفع حاجبيه المشعثين. وقال "**رايلاند**" في تؤدة:

– إنها لمفاجأة سارة يا سيد "**بوارو**" فقد خدعتنا جميعا وظنناك من سكان القبور، على أن الأمر قد انقضى الآن.

وكان في صوته ما يشبه صليل الصلب البارد... ولم تقل السيدة "**أوليفييه**" شيئا، لكن عينيها كانتا تتألقان بذلك البريق البغيض. وأجاب "**بوارو**" بهدوء:

– أحييكم يا سيدتي وسادتي. وراعتني في صوته رنة لم أعهدها فالتفت إليه، وكان ساكنا رابط الجأش ولكنني أحسست إحساسا خفيًا بأن فيه شيئا غير مألوف.

ثم تحركت الستائر من خلفنا وبرزت منها الكونتسة "**فيرا روساكوف**" . وقال رقم 4:

– آه! ها هي مساعدتنا الأمينة... هنا صديق قديم لك يا سيدتي العزيزة. واستدارت "**الكونتسة**" مسرعة ولم تلبث أن هتفت مشدوهة:

– يا لله! إنه الرجل الصغير! لماذا أقحمت نفسك في هذا الأمر؟ فأجاب "**بوارو**" وهو ينحني أمامها:

– إنني يا سيدتي مولع بالمعارك الطاحنة مثل "**نابليون**" العظيم. ورأيت الشك يومض في عينيها فأشرقت الحقيقة في ذهني إن الرجل الواقف بجانبي ليس "**هركيول بوارو**" وإن كان يشبهه شبها يكاد يكون تاما من كل وجه... فهناك الرأس البيضاوي، والجسم القصير الممتلئ بعض الامتلاء، غير أن العينين قائمتان والشاربين المشهورين... وقطع عليّ تأملاتي صوت "**الكونتسة**" وهي تخطو إلى الأمام هاتفة:

– لقد خدعتم. إن هذا الرجل ليس "**هركيول بوارو**"!

وهتف رقم 4 معربا عن شكه في قولها فتقدمت "**الكونتسة**" وجذبت شاربي "**بوارو**" فخرجا في يدها وظهرت الحقيقة مجردة من كل لبس وإبهام، كان ثمة أثر جرح صغير يشوه شفة الرجل العليا ويغير هيئته تماما. وغمغم رقم 4:

– ليس "**هركيول بوارو**"! من يكون إذن؟ فهتفت فجأة:

– إنني أعرف الحقيقة. ولكنني لم ألبث أن أمسكت عن الكلام إذ خشيت عاقبة تسرعي، فقال الرجل الذي سأمضي في تسميته "**بوارو**" :

– قل إذا شئت. إن هذا لا ضير منه الآن فقد نجحت الحيلة. فقلت متمهلا:

– إن هذا "**أكيل بوارو**" توءم "**هركيول**" . وهتف رقم 4:

– محال. فقال "**أكيل**" في هدوء:

– لقد نجحت حيلة "**هركيول**" نجاحا رائعا. ووثب رقم 4 إلى الأمام وهو يهتف بصوت أجش:

– هل نجحت حقًّا؟ ألا تعلم أنك ستكون من الهالكين بعد دقائق؟ أجاب "**أكيل بوارو**":

– أعلم ذلك، ولكنك لا تعلم أن المرء قد يكون راغبا في ابتياع النجاح بحياته، هناك رجال ضحوا بحياتهم في ميادين الحرب من أجل وطنهم، وأنا راض بالتضحية بحياتي في سبيل الإنسانية.

وبدا لي أنه كان يجب أن يؤخذ رأيي في التضحية بحياتي في سبيل الإنسانية، ولكني تذكرت أن "**بوارو**" نصح لي بالتخلف فسكنت ثائرتي. وسأله "**رايلاند**" ساخراً:

– وكيف تضحي بحياتك في سبيل الإنسانية؟

– أرى أنكم لا تفهمون خطة "**بوارو**" حق الفهم، ويجب أن تعلموا قبل كل شيء أن معقلكم معروف منذ عدة أشهر، وأن جميع نزلاء الفندق وموظفيه من رجال المخابرات السرية... وقد ضرب حول الجبل حصار شديد فلن تستطيعوا الهرب بحال من الأحوال، فإن "**بوارو**" يشرف على العمليات في الخارج وكان حذائي ملوثا بأحد مركبات "**الأنيسيد**" عندما نزلت الليلة إلى التراس منتحلا شخصية أخي، والكلاب البوليسية تقتفي الآن هذا الأثر وستقودهم إلى مدخل المعقل، وهكذا ترون أنكم مهما فعلتم بنا فإن الشبكة تضيق وتنطبق عليكم ولن تجدوا إلى الفرار سبيلا. فضحكت السيدة "**أوليفييه**" فجأة وقالت:

– أنت مخطئ، فلا يزال أمامنا سبيل إلى الفرار وسنهلك أعداءنا معنا كما فعل "**شمشون**" قديما، ما رأيكم أيها الأصدقاء؟ قال "**رايلاند**" وهو يحدق إلى "**أكيل بوارو**":

– هبوا أنه كاذب؟ فهز "**أكيل**" كتفيه قائلا:

– سيطلع الفجر بعد ساعة وعند ذلك يتجلى لكم صدق أقوالي ولا ريب أنهم الآن قد وصلوا إلى المدخل في "**تيه فيلسين**".

وما إن فرغ من قوله حتى ترامت إلينا أصوات بعيدة ودخل رجل يصيح بكلمات مضطربة غير واضحة، فوثب "**رايلاند**" عن مقعده وهرع إلى الخارج، وسارت

السيدة "**أوليفييه**" إلى نهاية القاعة وفتحت بابا لم الاحظه من قبل، فلمحت من ورائه معملا مجهزا بالآلات كمعملها في "**باريس**"، ووثب رقم 4 كذلك وغادر القاعة ثم عاد بمسدس "**بوارو**" وأعطاه إلى الكونتسة "**روساكوف**" قائلا:

– ليس ثمة اي خوف من فرارهما لكن من الخير أن يكون هذا معك. ثم غادر القاعة مرة أخرى. ودنت منا "**الكونتسة**" وراحت تتفرس في صاحبي طويلا ثم قالت ساخرة:

– إنك لشديد البراعة والدهاء يا سيد "**أكيل بوارو**".

– فلنتحدث حديثا عمليًّا يا سيدتي، وقد كان من حسن الحظ أن تركونا وحدنا. ما الثمن الذي تطلبينه؟

– لا افهم ما تعنيه. اي ثمن؟

– إن بوسعك يا سيدتي أن تساعدينا على الفرار؛ إذ إنك تعرفين منافذ سرية من هذا المكان. فما الثمن الذي تطلبينه؟ فضحكت قائلة:

– أكثر مما تستطيع أيها الرجل الصغير! إن جميع أموال العالم لا تكفي لابتياعي!

– لم أتحدث عن المال يا سيدتي فإني رجل على شيء من الذكاء لكن لكل امرئ ثمنه كما يقولون، وإني لأعرض عليك أمنية قلبك مقابل الحياة والحرية.

– إذن فأنت ساحر!

– لك أن تسميني كذلك إذا شئت. وتحولت "**الكونتسة**" عن لهجتها الساخرة وقالت في حزن:

– أيها الأحمق! أمنية قلبي! أتستطيع أن تهبني الانتقام من أعدائي؟ اتستطيع أن ترد عليَّ الشباب والجمال والمرح؟ اتستطيع أن تعيد الموتى إلى الحياة؟ وكان "**أكيل بوارو**" يحدجها بعينيه فقال:

– ما الذي تريدينه من هذه الثلاثة يا سيدتي؟ اختاري ما شئت. فقهقهت "**الكونتسة**" ساخرة وقالت:

– لعلك تبيعني إكسير الحياة؟ ساعقد معك صفقة، كان لي ولد، احضر لي ولدي تصبح حرًّا!

– قبلت يا سيدتي وسيرد إليك ولدك، وأقسم لك على ذلك بشرف "**هركيول بوارو**" نفسه. وضحكت هذه المرأة العجيبة طويلا ثم قالت:

– لقد نصبت لك شركا صغيرا يا عزيزي السيد "**بوارو**"، إنه لكرم منك أن تعد بإعادة ولدي إليَّ، ولكني أعلم أنك لن تنجح وأن هذه الصفقة ستكون من جانب واحد.

– أقسم لك يا سيدتي بملائكة السماء أنني سأرد عليك ولدك.

– لقد سألتك من قبل يا سيد "**بوارو**" هل تستطيع إعادة الموتى إلى الحياة؟

– إذن فإن الطفل...

– ميت؟ أجل. فتقدم إلى الأمام وقبض على معصمها قائلا:

– سيدتي... سأقسم لك مرة أخرى، سأعيد الميت إلى الحياة. وحدقت إليه المرأة مذهولة شاردة اللب، واستطرد قائلا:

– إنك لا تصدقينني ولكني سأثبت لك صدق ما أقول، أحضري محفظتي التي أخذوها مني.

فغادرت الغرفة وعادت بالمحفظة وهي قابضة على مسدسها. وبدا لي أن الأمل في مخادعتها ضعيف واه فما كانت الكونتسة "**روساكوف**" بالغبية الحمقاء. وقال صاحبي:

– افتحيها يا سيدتي. الجيب الأيسر. أخرجي الصورة الفوتوغرافية وانظري إليها. وأخرجت المرأة صورة لم تكد تنظر إليها حتى صاحت وهي تترنح ثم هرعت إلى صاحبي هاتفة:

– أين؟ سوف تخبرني...

– تذكري صفقتك يا سيدتي.

– أجل... سائق بك. أسرعا قبل أن يعودوا.

وقبضت على يده وأسرعت به خارجة من القاعة وأنا في أثرهما، وافضت بنا من القاعة الخارجية إلى النفق الذي دخلنا منه، ولم يكن الحصار الذي ضربه "**بوارو**" حديث خرافة، فما كدنا نبرز حتى انقض علينا ثلاثة رجال ولكنهم ارتدوا عنا في

عجب فصاح صاحبي:

– أسرعوا أسرعوا... ليس أمامنا سوى دقيقة واحدة. ولكنه لم يتم عبارته، فقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا زلزالا شديدا وسمعنا دويًّا هائلا يصم الآذان، وبدا لنا أن الجبل ينهار انهيارا، وقذف بنا عنف الانفجار في الهواء. عدت إلى الرشد فالفيت نفسي في فراش غريب وغرفة غريبة، وكان بجانب النافذة شخص انثنى إليّ ووقف أمامي، وكان "**أكيل بوارو**"... لكن أهو كذلك حقًّا؟ وسرعان ما تبددت شكوكي أمام ذلك الوجه الساخر المألوف وقال:

– أجل... هذا أنا يا صديقي، أما الأخ "**أكيل**" فقد عاد إلى موطنه... إلى أرض الوهم والخيال، لم يكن ثمة سواي، وليس رقم 4 هو الذي يحسن وحده التقليد والتمثيل، وإن هو إلا قليل من البلادونا في العينين، والتضحية بشاربي، وذلك الجرح الحقيقي الذي كلفني إحداثه ألما شديدا منذ شهرين، فما كان بوسعي أن أخدع رقم 4 بجرح زائف...

– لكن لماذا لم ترسل شخصا آخر ينتحل شخصيتك؟

– وأتركك تتعرض للخطر دون أن أكون بجانبك؟ ثم إنني كنت أعلم دائما أنني ساهتدي إلى سبيل للنجاة بواسطة الكونتسة "**روساكوف**"...

– وكيف استطعت إقناعها بتلك القصة الواهنة عن ولدها الميت؟

– إن "**الكونتسة**" أصدق منك فراسة يا عزيزي.

– وتلك الخرافة عن إعادة الميت إلى الحياة؟

– كنت صادقا كل الصدق.

– كيف؟

– أجل... إنك تعرف الشعار المشهور: "كن مستعدًّا" فما كدت أعلم أن الكونتسة "**روساكوف**" على صلة بـ"الأربعة العظام" حتى بحثت في ماضيها كله، وعلمت أنه كان لها طفل قيل لها إنه قتل، ولكني وجدت في القصة التي رويت عن مقتله ثغرات حملتني على الشك في صحتها والظن بأن الطفل قد يكون على قيد الحياة.. ونجحت أخيرا في تتبع آثاره وحصلت عليه لقاء مبلغ كبير من

المال... وكان الطفل في حال يرثى لها من الجوع والحرمان، فعهدت به إلى قوم صالحين في مكان أمين، وأخذت له صورة في بيئته الجديدة، ولما حانت الساعة كنت على أتم الاستعداد للعبتي المسرحية.

– إنك لعجيب يا "بوارو"...!

– ولقد طابت نفسي بما فعلت فإني أحب "الكونتسة" وكان يسوؤني أن تهلك في الانفجار.

– وإلام صار رجال العصابة؟

– لقد اكتشفت الجثث كلها، لكن شخصية رقم 4 لم يمكن التحقيق منها إذ تفتت رأسه، وكنت أود ألا يحدث ذلك حتى نكون على ثقة بموته، وحسبنا ذلك... والآن اقرأ...

وأعطاني صحيفة بها فقرة كانت تروي نبأ انتحار "لي تشانج ين" الذي دبر الثورة الأخيرة التي فشلت فشلا ذريعا.

تمت بعون الله